



البحر المتوسط

بحيرة عربية



دار المعارف

البحر المتوسط

بحيرة عربية

دكتور علي حسني الخربوطلي

البحر المتوسط

بحيرة عربية

اقرأ ٢٤٧

دار المعارف

اقرأ ٢٤٧ – يولية سنة ١٩٦٣

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م

مقدمة

اعتاد المؤرخون ــ قدامى ومحدثون ــ أن يتحدثوا عن إحجام العرب فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام عن ركوب البحر . ولكن هذا الرأى لا ينطبق إلا على فريق من عرب الجزيرة العربية من البدو الذين جعلوا الرعى حرفتهم الأولى . فقد كان عرب اليمن يعملون بالتجارة البحرية ويمتلكون الأساطيل الضخمة ، وشهد البحر الأحمر والمحيط الهندى أساطيل حمير وسبأ فى أيام التبابعة . أما عرب الحجاز ، وإن كانوا لا يجارون عرب اليمن فى ركوب البحار فما كانوا يحجمون عن ركوبه خوفاً أو هلعاً ، ولكن تمشياً مع طبيعة بلادهم ، فقد كانت بلاد اليمن يحيط بها الماء من غربها حيث البحر الأحمر ، ومن الجنوب حيث المحيط الهندى . أما بلاد الحجاز فقد وجهت اهتمامها نحو الشمال حيث الشام غرباً والعراق شرقاً ، واتخذوا الطرق البرية دون البحرية ، واهتموا بالقوافل دون السفن . وفى الحقيقة كان عبور صحراء شمال الجزيرة العربية وبادية الشام أكثر مشقة من عبور البحار ، حتى إن الجغرافيين اعتادوا أن يسموا بلاد العرب (الجزيرة العربية) بدلا من (شبه الجزيرة العربية) ، فقد اعتبروا بادية الشام بحراً يعج بالرمال وهو أكثر مشقة من بحر الماء .

ولابد أن عرب الحجاز اعتادوا ارتياد البحر الأحمر ، وأن سفنهم كانت تجوب هذا البحر ، فى عهد الرسول حينما اشتد إيذاء الوثنيين للمسلمين ، فكر محمد فى هجرة المسلمين واختار الحبشة لتكون مكان هجرة ، ولولا أن أهل مكة من المسلمين كانوا يقصدون هذه البلاد منذ العصر الجاهلى لما فكروا فى الخروج إليها ، وقد تتابعت سفن المسلمين إلى الحبشة تحمل وفوداً من المهاجرين ، وما لبثت قريش أن بعثت وفداً برئاسة عمرو بن العاص يطلب من النجاشى ردّ المسلمين ، ولكن النجاشى اقتنع بصدق الدين الجديد الذى اعتنقه العرب فرد وفد قريش خائباً . وظل المهاجرون المسلمون يقيمون فى الحبشة إلى أن هاجرالرسول من مكة إلى المدينة فعاد المهاجرون من الحبشة .

كانت بداية الفتوحات العربية الإسلامية فى عهد الخليفتين الأولين أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب إيذاناً بظهور المجد العربى الحربى ، والسيادة العربية فى البحار ، وخاصة فى البحر المتوسط فقد فتح العرب المسلمون الشام ومصر بعد أن قضوا على السيادة الرومانية ، وكان هذا إيذاناً بانتهاء السيادة الرومانية أيضاً فى البحر المتوسط ، وبدأت الأساطيل العربية تجول وتصول فى البحر المتوسط . وبمرور الأعوام ، سيطر المسلمون على شرق البحر المتوسط حيث بلاد الشام ، ثم جنوب شرقى البحر المتوسط حيث مصر . ثم وصلت الفتوحات العربية إلى

سواحل المحيط الأطلسى ، وخضع شمال أفريقية جميعه للحكم العربى ، فسيطر العرب على جنوب البحر المتوسط ، ثم فتح العرب بلاد الأندلس ووصلوا إلى جنوب فرنسا فسيطروا بذلك على الحوض الغربى للبحر المتوسط ، وفتحوا معظم جزر البحر المتوسط وغزوا جنوب إيطاليا ، وأصبحوا يسيطرون على معظم أرجاء شمال البحر المتوسط ، وتحول هذا البحر إلى بحيرة عربية ، بعد أن كان فى عهد الإمبراطور جستنيان بحيرة بيزنطية .

اتفق المؤرخون — عرب وأجانب — على أن البحر المتوسط كان طوال معظم العصور التاريخية بحيرة عربية . فتحدث ابن خلدون عن عظمة العرب والمسلمين البحرية فى البحر المتوسط فقال : « وقد كان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشىء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم ، فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومينورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وأقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم والإفرنج » .

وتحدث (آدم متز) فى كتابه (الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى) عن عظمة البحرية العربية فقال : « لم يكن لأوربا سلطان على البحر الأبيض المتوسط خلال القرن العاشر الميلادى ، فقد كان بحراً عربيـاً ، وكان لابد لمن يريد أن يقضى

لنفسه فيه أمراً من أن يخطب ودّ العرب ، كما فعلت نابلى وغيتة وأمالفى . ويظهر أن الملاحة الأوربية نفسها كانت فى ذلك العصر على حال يرثى لها من الضعف » .

عدّد المؤرخ الأمريكى المعاصر (أرشيباللد لويس) فى كتابه (القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط) كثيراً من صور أمجاد العرب ، وقرر أن العرب كانوا فى معظم عهودهم ، وخاصة فى القرن العاشر الميلادى ، سادة البحر المتوسط .

وتحدث المؤرخ الألمانى (فون كريمر) فى كتابه (الشرق فى ظل الخلفاء)[1] . عن أثر أساطيل العرب فى الأساطيل الأوربية ، فقال : « مما يوضح لنا أن الأساطيل العربية البحرية لاتزال شائعة على ألسنة التجارة فى جنوب أوربا . نذكر من بين تلك الاصطلاحات كلمة Cable المأخوذة عن لفظ (حبل) العربى . وكلمة Arsenal (وبالإيطالية Darsonal) المأخوذة عن لفظ (دار الصناعة) بالعربية ، وكذا كلمة Corvette المأخوذة عن لفظ غراب العربية ، وكلمة Admiral المأخوذة عن (أمير البحر) » .

هذه هى صفحات تتحدث عن جانب من جوانب الأمجاد العربية ، المجد البحرى ، وأرجو أن أكون قد ساهمت مع من ساهموا فى إبراز العظمة العربية التى تدعو إلى الفخر والاعتزاز ، والله ولى التوفيق .

المؤلف

---

(١) P. 356

١ – قيام الأسطول العربى فى البحر المتوسط

رواد البحر الأولون :

خفقت أعلام المسلمين على سواحل الشام ومصر ، ورأى العرب سفن الروم ، وشاهدوا حروبها فيها ، فتاقت أنفسهم للغزو فى البحر وامتلاك الأساطيل . كان أول عربى ركب البحر هو العلاء بن الحضرمى ، والى الخليفة الثانى عمر بن الخطاب على البحرين . فقد خرج باثنى عشر ألفاً من الجند المسلمين من غير إذن الخليفة لغزو بلاد فارس ، فعبر بسفنه الخليج الفارسى ، وعاد المسلمون إلى البصرة محملين بالغنائم ولكنهم فقدوا معظم سفنهم التى خرجوا بها ، وعلم الخليفة عمر بهذه الحملة ، فأبدى غضبه على العلاء وولى سعد بن أبى وقاص الإمارة وجعل العلاء مرؤوساً له .

يصور بعض المؤرخين حملة العلاء على أنها حملة فاشلة ، ولكننا لا نرى غرق معظم السفن مقياساً للفشل ، فقد عاد معظم جند الحملة سالمين ، ومعهم كثير من الغنائم ، وإذا كانت هذه هى التجربة الأولى للسفن العربية الإسلامية ، فإن النتيجة ليست بالغة السوء .

انتهت الفتوحات العربية الإسلامية لبلاد الشام ومصر

باستقرار العرب فيها وامتلاكهم للساحل الشرقى والجنوبى للبحر المتوسط ، وشاهد العرب ، سفن الروم ، فتاقوا إلى مجاراة أعدائهم ، وكان أكثر العرب توقاً معاوية بن أبى سفيان وكان يتولى جند دمشق والأردن، كما كان طموحاً بعيد المطامع فأراد ركوب البحر المتوسط ، أو بحر الروم كما كانوا يسمونه قبل سيادة العرب ، وغزو بلاد الروم بحراً ، ولم يشأ أن يكرر خطأ العلاء الذى خرج دون استئذان الخليفة ، فبعث معاوية إلى عمر بن الخطاب يستأذنه وألح فى الاستئذان . ولما كان عمر ليس لديه فكرة واضحة عن الغزو فى البحر ، بعث إلى عمرو ابن العاص الوالى العربى لمصر رسالة يطلب فيها من عمرو أن يصف له البحر ، فكتب عمرو « يا أمير المؤمنين ، إنى رأيت البحر خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، إن ركد أحزن القلوب ، وإن ثار أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة . هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق وإن نجا برق » . وكان هذا الوصف كافياً ليكتب عمر إلى معاوية ينهاه عن ركوب البحر ، فقال له : « لا والذى بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً أبداً » .

علل ابن خلدون [1] سبب امتناع العرب فى صدر الإسلام عند ركوب البحر فقال : « والسبب فى ذلك أن العرب لبداوتهم

(١) المقدمة ص ٢٢٠ .

لم يكونوا أول الأمر مهرة فى ثقافته وركوبه ، والروم والإفرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم فى التغلب على أعواده ، مرنوا عليه فأحكموا الدراية بثقافته . فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم ، وصارت أمم البحر خولا لهم وتحت أيديهم ، وتقرب كل ذى صنعة إليهم بمبلغ صناعته واستخدموا النوتية فى حاجاتهم البحرية أمماً ، وتكررت ممارستهم البحر وثقافته ، استحدثوا بصراء بها ، فتاقت نفوسهم إلى الجهاد فيه وأنشأوا السفن فيه والشوانى ، وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح ، وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغرهم ما كان أقرب إلى هذا البحر وعلى حافته مثل الشام وأفريقية والمغرب والأندلس » .

يخطئ الذين يقولون إن العرب لنزوحهم من الصحراء كانوا غير أهل لمزاولة الملاحة البحرية ، فإنهم ما كادوا يستقرون على ساحل البحر المتوسط فى سوريا وفلسطين ومصر ، حتى مرنوا على البحر واستعانوا بالروم وسكان فينيقيا القديمة فى بناء أساطيلهم التجارية والبحرية ، ولم يطل بهم الزمن حتى استطاعوا فى عهد الأمويين أن يخضعوا جزيرة قبرص ويهاجموا بيزنطة مرة أخرى . وقد أنشأوا ميناء البصرة على رأس خليج فارس كما عبروا مضيق هرقل واجتازوا صخرته بقيادة طارق بن زياد سنة ٧١١ م لفتح الأندلس ، فهو جبل طارق منذ ذلك التاريخ.

ولما استقر أمور العرب فى الأندلس وشمال أفريقية استطاعوا

احتلال جزر البليار فى الغرب ، وصقلية ومالطة وجنوبى إيطاليا فإذا كان قد استعصى على العرب فتح مغاليق أوربا أمام القسطنطينية من الشرق ، فإنهم قد فتحوا طريقهم إلى صميم أوربا من الجنوب والغرب وأنشأوا لهم فى الأندلس دولة دامت قرابة ثمانية قرون[1].

فجر السيادة العربية فى عصر عثمان :

لم يكن فى رفض عمر بن الخطاب صرف لمعاوية عن أطماعه ، فظلت رغبته حبيسة فى نفسه حتى تولى الخلافة عثمان ابن عفان وكان يجمعهما الانتساب إلى البيت الأموى . فأعاد معاوية الاستئذان من عثمان ليسمح له بغزو الروم بحراً ، ووافق عثمان ، واشترط على معاوية ألا يحمل الناس على ركوب البحر كرهاً ، فتكون الخدمة البحرية عن طريق التطوع ، واستعمل على البحر عبد الله بن قيس . فغزا معاوية خمسين غزوة بين شاتية وصائفة ، هاجم فيه الجزر اليونانية ، وتمكن المسلمون من فتح جزيرة قبرص سنة ٢٨ هـ على يد حملات بحرية خرجت من شواطئ الشام ومصر ، وصالح أهل قبرص معاوية على أن يدفعوا له كل سنة ٧٢٠٠ دينار . وكانت غزوة قبرص أول غزوة غزاها العرب المسلمون فى البحر . ورافق

---

(١) محمد رفعت : التيارات السياسية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ص ٢٨ .

العرب النصر فازدادوا رغبة فى الغزو البحرى ، وجعلوا ذلك فى أوقات معينة من الصيف والشتاء .

كانت حملة قبرص غارة بحرية ، كما كانت فى الوقت نفسه عملا دفاعياً، جمع له معاوية عدداً كبيراً من سفن مدن سورية الساحلية ، وفرقاً محاربة من مصر . وقد سهل على العرب بفضل استيلائهم على دور الصناعة الرومانية فى الإسكندرية والشام سليمة ، أن تكون لديهم سفن حربية ، إما حاضرة وإما سهلة الإنشاء، كما كانت تحت أيديهم السفن التجارية التى يملكها أهل الشام ومصر ، وهذه يمكن الاستيلاء عليها واستخدامها فى أغراض الحرب مع ما يكفيها من ملاحى تلك الثغور الخبيرين بشئون الملاحة[1] .

صادف معاوية التوفيق ، ويذكر المؤرخون العرب أن الأسطول الذى هاجم قبرص بلغ ١٧٠٠ سفينة ، واستولى معاوية على الجزيرة فى يسر ، كما استولى على غنائم كثيرة ، وفرض على أهلها جزية بلغت ٧٢٠٠ قطعة من الذهب تدفع إلى دمشق سنوياً . ويضاف إلى هذا أن يتعهد أهل قبرص بإبلاغ العرب عن أية استعدادات يقوم بها الروم ضدهم . ومن هذا الشرط الأخير نرى سر اهتمام معاوية بقوة الروم البحرية وبعد عام من الهجوم السابق سقطت مدينة أرواد فى يد قوة

---

(١) لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٩١ .

برية بحرية من العرب . وكانت آخر وأقوى حصن للروم على سواحل الشام .

وهكذا كان عهد عثمان بن عفان هو بداية ظهور الأسطول العربى فى العصر الإسلامى ، وبداية السيادة العربية فى البحر المتوسط . فقد اتسعت الإمبراطورية العربية الإسلامية وشملت شعوباً وأمماً بحرية، ووجد العرب أنفسهم مضطرين إلى قتال شعوب بحرية ، وأنهم فى حاجة إلى الاستيلاء على جزر البحر المتوسط لأهميتها الحربية الاستراتيجية فى الدفاع عن سواحل الشام ومصر التى استولى العرب عليها ، ولذا شعر العرب بحاجتهم الماسة إلى أسطول يكون عوناً لهم فى تحقيق أمانيهم فى مد سلطانهم وغزو الروم فى عقر دارهم ، ولذا وافق عثمان بن عفان على إنشاء الأسطول العربى الإسلامى ، والسماح للعرب المسلمين بالتطوع فى الخدمة البحرية .

عوامل قيام الأسطول العربى :

إذا كان العرب فى فجر الإسلام قد بعدوا عن ركوب مياه البحر العميقة الزرقاء ، فإن السياسة الحكيمة أشارت بارتيادها والمغامرة فيها . فالجغرافية جعلت من مصر ومن سورية الساحلية بلاداً لا يمكن عزلها عن البحر المتوسط وإن نظرة سريعة إلى الخريطة ترينا كيف يبدو أنهما أكثر اتجاهاً إلى البحر منهما

إلى البر حيث الصحارى الداخلية . ولما كان معظم ثروة مصر وسورية من تجارتهما الداخلية وعلاقاتهما التجارية الخارجية مع بلاد البحر المتوسط ، فإن العرب إذا ما انصرفوا عن البحر وأهملوا العلاقات الاقتصادية التى تقوم مع بلاد البحر المتوسط لنضبت موارد مصر والشام ، ولذا سرعان ما اندمج العرب فاتحو مصر وسورية فى حياة البحر .

ومن أهم ما دفع العرب إلى التحوّل نحو البحر ، حاجتهم للدفاع عن الفتوحات العربية الإسلامية التى بذلوا جهودهم وأرواحهم فى سبيلها حقيقة أنهم ملكوا البرّ ، ولكن البحر كان لا يزال فى قبضة الرومان .

كان مما دعا عثمان بن عفان إلى التفكير جدياً إلى إنشاء أسطول عربى إسلامى تعرض مصر لمحاولة رومانية لإعادة مصر إلى الحكم الرومانى مرة أخرى . ففى عهد الإمبراطور (كونستانس الثانى) ابن هرقل ، بدأت الدولة الرومانية تضع سياسة جديدة لمواجهة الأوضاع الحربية الجديدة فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط . وأخذ الإمبراطور يستعد لاسترداد مصر والشام من أيدى العرب المسلمين . فبعث فى سنة ٢٥ هـ (٦٤٥ م) ثلثمائة سفينة رومانية عليها آلاف من الجند لاسترداد مصر ، وعين (مانويل) قائداً للحملة ، وهو القائد الذى دافع عن الإسكندرية ببسالة خلال حصار عمرو بن العاص لها فى خلافة عمر بن الخطاب وفوجىء أهالى الإسكندرية بقدوم

الحملة الرومانية بغتة ، وسقطت الإسكندرية فى أيدى الرومان الذين تقدموا فى أراضى الدلتا واقتربوا من حصن بابليون ، ورأى عثمان بن عفان أن يبعث عمرو بن العاص لصدّ الروم ، برغم أنه كان قد عزله من حكم مصر وولى بدله عبد الله بن سعد ابن أبى سرح ، فقد كان عمرو أكثر القواد العرب خبرة بحرب الروم وخاصة فى الأراضى المصرية ، وكان عالماً بخطط مانويل ، ونجح عمرو فى هزيمة مانويل عند (نيقيوس) فتراجع إلى الإسكندرية وتحصن فيها. ولكن عمرو بن العاص حاصرها وتمكن من اقتحام أسوارها ، وقتل حامية الروم ، وفى مقدمتهم القائد مانويل (١).

وفى نفس الوقت الذى كانت الحملة الرومانية تشن غارتها على مصر كانت حملة رومانية أخرى تغير على الشام ، ولكن معاوية بن أبى سفيان انبرى يدافع عن الشام ، وتمكن من إنزال الهزيمة بالرومان ، وبذلك نجت الشام كما نجت مصر من محاولة الروم إعادتهما للحكم الرومانى ، وزاد إيمان العرب بضرورة الاهتمام بالأساطيل البحرية (٢) .

معركة ذات الصوارى :

وفى سنة ٣٤ هـ قدم أسطول رومانى يتألف من حوالى ٦٠٠ سفينة بقيادة الإمبراطور كنستانس الثانى لغزو الإسكندرية

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٣٥٨ .

(٢) Bury II p. 288

وكان والى مصر حينئذ عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وخرج الأسطول المصرى بقيادة عبد الله بن سعد للقاء الأسطول الرومانى ، وبعث معاوية بن أبى سفيان والى عثمان بالشام أسطولا بقيادة بسر بن أرطأة ليتعاون مع الأسطول المصرى فى صد الروم ودارت معركة بحرية عنيفة عند (فوينكس Phoenix) قرب شواطئ ليكيا بآسيا الصغرى ، فقد أبحر المسلمون فى جرأة مقتربين من سفن العدو وأقدم العرب على ربط السفن العربية إلى السفن البيزنطية وحارب الجند ملتحمين ، وقامت معركة دامية ، وصفها المؤرخ الإغريقى (ثيوفانس) بأنها كانت يرموكاً ثانياً على الروم . ووصفها المؤرخ العربى الطبرى فقال إن الدم كان غالباً على الماء فى هذه المعركة ، وإن الأمواج طرحت جثث القتلى ركاماً . وكانت بثينة الجميلة الجريئة — وزوجة القائد— على ظهر إحدى السفن . ولقد روت وصفاً عيانياً لما قام به جندى شاب يدعى علقمة ، الذى أنقذ سفينة القائد بأن ألقى بنفسه على السلاسل وقطعها بسيفه . وأطلق على هذه المعركة العنيفة اسم (ذات الصوارى) لكثرة صوارى السفن التى اشتركت فى المعركة . وقد انتهت المعركة باندحار الأسطول الرومانى ، وكاد الإمبراطور يقع أسيراً فى أيدى المسلمين[1] .

انتهت معركة ذات الصوارى بأول نصر عربى فى معركة

---

(١) ابن عبد الحكم ص ١٩٠ ، مصر فى عصر الولاة ص ٦٥ .

بحرية . ويبدو أن انتصار العرب نتيجة لخطط غير عادية ؛ إذ ربطوا سفنهم بعضها إلى بعض بسلاسل ثقيلة ، فاستحال على أعدائهم اختراق صفوفهم واستخدموا فى تلك المعركة خطاطيف طويلة يصيدون بها صوارع وشرع سفن الأعداء ، الأمر الذى انتهى بكارثة بالنسبة للروم ، ونجا الإمبراطور كونستانس من الموت بفضل سفينة من سفنه السريعة .

ومما يلفت النظر أن المكان الذى دارت فيه المعركة ، وهو ساحل الأناضول يزدحم بغابات السرو الكثيفة ، وهو الشجر المستخدم فى صوارى السفن . ولعل الروم قرروا القيام تلك المعركة ليحولوا بين الخشب اللازم لصناعة السفن ، وبين وقوعه فى قبضة العرب . وإذا صح هذا الزعم فإنه يقوم دليلا على أهمية الخشب فى الصراع البحرى بين العرب والروم .

كانت معركة ذات الصوارى حداً فاصلا فى سياسة الروم إزاء العرب المسلمين ، فقد أفاق الإمبراطور كونستانس بعدها إلى نفسه ، وأدرك أن إعداد أية حملات برية أو بحرية لاسترداد مصر أو الشام مجهود فاشل ضائع ومحاولات فات أوانها . ورأى من الأجدى أن ينظم دولته وسياستها على أساس الأمر الواقع للاحتفاظ بالبقية الباقية من ممتلكاتها ، ويقوى أداتها الحربية لصد هجوم المسلمين الذين بدأوا يتطلعون إلى فتح القسطنطينية عاصمة الروم .

أفادت هذه السياسة الدولة الرومانية ، فقد استطاع خلفاء

كونستانس على ضوء هذه السياسة أن يوقفوا تيار الفتوحات الإسلامية عند أطراف آسيا الصغرى الجنوبية . ومما ساعد أباطرة الروم على الدفاع عن كيانهم أن الفتوحات الإسلامية حملت لدولتهم نتائج حسنة جاءت عن غير قصد ذلك أن سقوط مصر والشام فى أيدى المسلمين اقتطع رقعة أقلقت دولة الروم كثيراً وأجهدتها زمناً طويلا ، وصرفت اهتمام أباطرتها إلى ميدان لا طائل من ورائه وهو حل المشكلة المذهبية . وغدت أراضى الروم باستثناء بعض الجهات التى ظلت تابعة للدولة ، فى شمال أفريقية وإيطاليا ، وحدة يسودها سكان إغريق يتكلمون لغة واحدة ويدينون بعقيدة واحدة ومذهب واحد ، ويكونون كتلة متماسكة موالية للإمبراطور فأصبحت بذلك المشاكل التى تواجهها دولة الروم محدودة بسيطة . وصح للمؤرخ (فازيليف) القول بأن الفتوحات الإسلامية خففت الأعباء الثقيلة التى ناءت بها دولة الروم، وتركتها تجتاز فترة نقاهة تسترد فيها قوتها [1]

أدت الفوضى الداخلية فى الدولة الرومانية إلى أن اتخذ كونستانس الثانى خطوة جريئة لم تتخذ قبل ، تلك هى نقل عاصمته وجانب كبير من أسطوله ، وعشرين ألفاً من رجال جيشه من الأسيويين إلى مدينة (سرقوسة) بصقلية ولعله أدرك بغريزته الدور الذى يمكن أن تلعبه أملاكه فى

---

(١) العدوى : الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٦٤ .

بحرية . ويبدو أن انتصار العرب نتيجة لخطط غير عادية ؛ إذ ربطوا سفنهم بعضها إلى بعض بسلاسل ثقيلة ، فاستحال على أعدائهم اختراق صفوفهم واستخدموا فى تلك المعركة خطاطيف طويلة يصيدون بها صوارع وشرع سفن الأعداء ، الأمر الذى انتهى بكارثة بالنسبة للروم ، ونجا الإمبراطور كونستانس من الموت بفضل سفينة من سفنه السريعة .

ومما يلفت النظر أن المكان الذى دارت فيه المعركة ، وهو ساحل الأناضول يزدحم بغابات السرو الكثيفة ، وهو الشجر المستخدم فى صوارى السفن . ولعل الروم قرروا القيام تلك المعركة ليحولوا بين الخشب اللازم لصناعة السفن ، وبين وقوعه فى قبضة العرب . وإذا صح هذا الزعم فإنه يقوم دليلا على أهمية الخشب فى الصراع البحرى بين العرب والروم .

كانت معركة ذات الصوارى حداً فاصلا فى سياسة الروم إزاء العرب للمسلمين ، فقد أفاق الإمبراطور كونستانس بعدها إلى نفسه ، وأدرك أن إعداد أية حملات برية أو بحرية لاسترداد مصر أو الشام مجهود فاشل ضائع ومحاولات فات أوانها . ورأى من الأجدى أن ينظم دولته وسياستها على أساس الأمر الواقع للاحتفاظ بالبقية الباقية من ممتلكاتها ، ويقوى أداتها الحربية لصد هجوم المسلمين الذين بدأوا يتطلعون إلى فتح القسطنطينية عاصمة الروم .

أفادت هذه السياسة الدولة الرومانية ، فقد استطاع خلفاء

مصر يرسل بعض الملاحين المصريين للعمل فى أسطول المغرب أو أسطول المشرق ، والمساهمة فى المشروعات البحرية العامة للدولة العربية الإسلامية[١].

اشتهرت مصر منذ بداية الحكم العربى الإسلامى بصناعة السفن التى كان يحتاج إليها أسطول الخلافة ، وأصبحت صناعة السفن أكبر صناعات الإسكندرية ، وقد كانت الإسكندرية أكبر أسواق العالم وأكثر ثغوره ازدحاماً وحركة ، وكانت بها تجارة عظيمة فى القمح والكتان والورق والزجاج وغير ذلك مما تحتاجه البلاد وكانت تحمل إليها مقادير عظيمة من الذهب والعاج من بلاد النوبة وأثيوبيا ، كما كانت تحمل إليها أنواع من البهار والحرير والفضة والجوهر وغيرها ، تأتى من بحار الهند والصين إلى البحر الأحمر ومن القلزم (السويس) فتحمل فى الترعة إلى (ممفيس) ومنها تنحدر فى نهر النيل إلى الإسكندرية حيث كانت تبعث إلى أطراف البحر المتوسط . ومثل هذه التجارة العظيمة لابدّ لها من عدد كبير من السفن ، وكانت تجلب الأخشاب لبناء السفن فى الإسكندرية إذ كان بناؤها هناك فى مقر التجارة التى تحتاج إليها أعود بالربح وأجدى على التجار . وكانت مصر فوق كل ذلك تنبت نوعاً من التيل يصلح لحبال وأدوات السفن .

---

(١) سيده كاشف : عصر الولاة ص ٥٦ ، المعارف البحرية ٤٣

وأكبر الظن أن تلك السفن التجارية كانت أكبر بكثير مما اعتاد الناس أن يظنوا فيها ، وكذلك كان حال السفن الحربية وعندما أصبحت مصر ولاية عربية إسلامية أمر معاوية ، والى الشام ، ببناء عدد من السفن الحربية فى الإسكندرية وسواها من الموانى التى تتبع الدولة العربية الإسلامية وذلك فى وقت لم يكن بمراسى الإسكندرية أحد من بنائى السفن الذين هم من أصل بيزنطى محض إذ كانوا لابد قد خرجوا منها جميعاً .

بعد مصرع الخليفة عثمان بن عفان (٣٥ هـ) تولى على بن أبى طالب الخلافة ، ونازعه والى الشام معاوية بن أبى سفيان . وانتهز الإمبراطور (كونستانس) فرصة انشغال العرب المسلمين بمشاكلهم الداخلية و بدأ يقوى الدولة الرومانية ، وفكر فى نقل مقر الحكم من القسطنطينية إلى جزيرة صقلية ، فقد ظن أنه فى إقامته بصقلية يكون فى مكان يتوسط الدولة ، ويربط دولة الروم بالبقية الباقية لها فى شمال أفريقية ، وأن يصد الزحف الإسلامى عما تبقى للروم فى أفريقية ، ولكن الإمبراطور اغتيل فى سيراكوز ومات مشروعه بموته [١] .

---

(١) العدوى : الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٦٥ .

٢ ـ الدولة الأموية وسيادة البحر المتوسط

معاوية أمير البحر الأول :

كان معاوية أمير البحر الأول في الدولة العربية الإسلامية وباعث النهضة العربية فى البحر المتوسط . وقد بدأ معاوية مشاريعه البحرية منذ اللحظة الأولى لاستقرار الفتوحات العربية الإسلامية فى بلاد الشام فى عهد عمر بن الخطاب ، وحقق كثيراً من هذه المشاريع فى خلافة عثمان بن عفان ، ولكنه شغل بنزاعه مع الخليفة على بن أبى طالب عن المضى فى نشاطه البحرى الواسع النطاق . حتى إذا قتل على بن أبى طالب ، وأصبح معاوية خليفة وأصبح صاحب السلطة الأولى فى الدولة العربية الإسلامية أخذ يحقق ما كان يعتمل فى ذهنه أو نفسه من مشاريع بحرية .

كان أول مشروع لمعاوية هو غزو الروم فى عقر دارهم ، وفتح عاصمتهم القسطنطينية ، وكانت الظروف تسمح بالقيام بهذه الحملة البحرية الكبيرة ، فقد تولى إمبراطور صغير السن هو قسطنطين الرابع سنة ١٦٨ م بعد مصرع أبيه كونستانس الثانى.

يبدو أن موت كونستانس وما أعقبه من ارتباك وفوضى أثناء عودة ابنه قسطنطين الرابع إلى القسطنطينية ، دفع معاوية إلى أن يفكر معاوية فى معاودة الهجوم البحرى عام ٦٦٩ م. وكان معاوية

يرى ضرورة السيطرة على شواطئ البحر المتوسط واتخاذ خطة الهجوم ، بدلا من السياسة الدفاعية التى اتبعتها العرب فى السنوات السابقة [١] .

اتجه جانب من الغزو العربى نحو الغرب ، فأغار العرب على جزيرة صقلية عام ٦٦٩ م . وفى العام التالى انتشر جيش عربى فى شمال أفريقية ، وأقام قاعدة حصينة دائمة فى القيروان فى جنوب شرقى تونس . ومن هذه القاعدة أخذوا فى القيام فيما بعد أعمال حربية بعيداً فى داخل الإقليم . على أنه يبدو أن غزوات العرب كانت أقرب ما تكون إلى الخدعة الحربية . وأن جهودهم الحقيقية كانت موجهة نحو القسطنطينية نفسها باعتبارها مركز الدولة الرومانية . وفى عام ٦٦٩ قام العرب بغارة تجريبية على خلقدونية لاختبار قوة الدفاع فى المنطقة المحيطة بالعاصمة . وفى عام ٦٧٢ م سلطت القوة العربية البحرية تسليطاً عنيفاً على منطقة بحر إيجه ، فهاجمت كريت ، واستولت على رودس فى نفس السنة . وقام الرومان بغارة مضادة على دلتا النيل عام ٦٧٣ م ، ولم تؤد الغارة إلى نتيجة ما . ويرجع ذلك إلى خروج عمارة ضخمة عليها فرق بحرية من المصريين والسوريين قاصدة بحر مرمرة ، وذلك فى نفس السنة ، وقد استمرت هناك سبع سنوات تحاصر العاصمة الرومانية .

(١) لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٩٦ .

العرب يغزون القسطنطينية العاصمة الرومانية :

خرج الأسطول العربى قاصداً القسطنطينية ، واشتبك مع الأسطول الرومانى فى مياه القسطنطينية فى عدة معارك حامية استمرت سبع سنوات (٥٤ — ٦٠ هـ — ٦٧٤ — ٦٨٠ م) . وكانت السفن العربية تقضى الشتاء فى جزيرة أرواد (كيزيكوس) وتحاصر القسطنطينية فى الربيع والصيف ، ولكن المسلمين لم يتمكنوا من فتح القسطنطينية لمناعة حصونها ، فقد دافع الروم عنها فى استبسال . وكانت المؤن والذخائر تأتى إلى العاصمة من جميع أرجاء الدولة الرومانية . كما استخدم الروم جنداً غير نظامية عُرفوا بالشجاعة والخشونة ، نتيجة معيشتهم بالجبال ، سماهم العرب (الجراجمة) أو (المردة) ، أى الثوار الخارجون على القانون ، بينما شبههم بعض المؤرخين بفرق الموت أو فرقة الصاعقة . وقد حارب (المردة) العرب حرب العصابات التى جهلها العرب ، فقد اعتادوا على الحروب المنتظمة المكشوفة ، فكانوا يحاربون وجهاً لوجه .

نجح معاوية فى القضاء على حركات المردة ، ونجح الأسطول العربى الإسلامى فى محاصرة القسطنطينية حصاراً قاسياً برغم النار البحرية التى اخترعها الروم ، وسموها النار الإغريقية واستخدموها فى صد المسلمين ولم يرفع معاوية الحصار إلا حينما شعر بدنو أجله ، ورأى أن تعود القوات الحربية إلى الشام

لحفظ الأمن الداخلى فى الدولة العربية الأموية .

كان خلاص القسطنطينية من الفتح راجعاً لاختراع جديد له شأنه ألا وهو استخدام النار الإغريقية (Greek Fire) ضد أسطول العدو المحاصر للعاصمة . وكان التركيب الكيماوى السرى مما يحتمل أن يكون قد استخدم منذ سنة ٥١٦ م ، ثم اكتشفه من جديد أو أدخل عليه التحسين رجل يدعى (كاالينيكوس) ، وهو سورى مقيم فى القسطنطينية ، وهناك استخدم هذا التركيب الجديد فى صورته الجديدة لأول مرة أثناء الحصار ، مما أدى إلى احتراق عدد من السفن العربية .

بلغ عدد سفن الأسطول العربى الذى اشترك فى حصار القسطنطينية حوالى ١٨٠٠ سفينة (١) . وفى سنة ٥٤ هـ قام الأسطول العربى بغارة بحرية على جزيرة كريت . وكان أعظم أميرين للبحر فى خلافة معاوية هما جنادة وعبد الله بن قيس . وقاد عبد الله وحده خمسين غارة على البيزنطيين . وفى سنة ٦٨ — ٦٩ هـ أبحر أسطول من مائتى سفينة من الإسكندرية وهاجم صقلية ، ونجحت الغارة البحرية وعادت الحملة بغنائم كثيرة .

وفى خلافة معاوية غزا عقبة بن عامر الفهرى جزيرة رودس وعاد العرب ومعهم الأنقاض النحاسية لتمثال إله الشمس ويبدو

---

(١) Bury II p. 41 ، لويس : القوى البحرية التجارية .

أن قبرص لم تلتزم شروط معاهدة عام ٦٤٨ م ، بدليل العودة إلى الإغارة عليها عام ٦٥٤ م ، وفى تلك الغارة حطمت ميناء قسطنطينية واحتلت الجزيرة نهائياً، ونزل بها ١٢٠٠ من الجند العرب المسلمين أقاموا فى ليبيتوس على الساحل الشمالى للجزيرة ، ولم تتغير الجزيرة المقررة عليها عما كانت قبلا .

وفى سنة ٥٣ هـ غزا الروم البرلس فى عهد ولاية مسلمة بن مخلد (٤٧ — ٦٢ هـ) وقتلوا عدداً من المسلمين ، وعلى رأسهم وردان مولى عمرو بن العاص ، ومن ثم اهتم أمراء مصر ببناء السفن ، فأنشئت لأول مرة (٥٤ هـ) دار الصناعة لبنائها فى جزيرة الروضة[1] .

وبنهاية حكم معاوية كان للمسلمين أسطول عظيم يتألف من ١٧٠٠ سفينة . وكانت مهمة بناء السفن على هذا النمط العظيم أمراً ميسوراً بسبب الغابات الواسعة فى جبال لبنان ، وبالإضافة إلى دور السفن على الساحل الشامى ، قامت عدة دور أخرى للصناعة على ساحل مصر ببناء السفن كذلك .

كان الأسطول البيزنطى لا يتفوق على الأسطول العربى سوى باختراع النار الإغريقية ، وكان التركيب الكيماوى لهذا السلاح أهم أسرار الإمبراطورية الرومانية واحتفظت بسريته ، وأغلب الظن أن الأسطول الإمبراطورى المرابط فى مياه

---

(١) خطط المقريزى جـ ٢ ص ١٩٠ .

القسطنطينية هو وحده الذى جُهِّز بالنار الإغريقية . وفى حالات الضرورة سمح للوحدات البحرية فى الأقاليم التابعة للإمبراطورية باستخدام هذا السلاح . ولهذا لم يستطع الأسطول العربى ، على الرغم من مهارة وشجاعة رجاله ، مقاومة النار الإغريقية .

كما أن الإمبراطورية الرومانية كان لديها الوفير من الأخشاب وحاجيات السفن والحديد، وكل ما هو ضرورى لبناء الأساطيل البحرية ، كما أنها فى نفس الوقت استطاعت أن تحول دون حصول أعدائها الأمويين على الكثير من هذه المواد . ولم يكن الحديد متوافراً فى الشام ومصر ، ولم يكن بوادى النيل الخشب اللازم للسفن والصوارى كما أن محصول الشام من خشب الصوارى فى لبنان كان محدوداً .

أمجاد عربية فى عصر عبد الملك بن مروان :

شُغل العرب منذ عهد الخليفة يزيد بن معاوية إلى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان بالنزاع الداخلى عن الاهتمام بالغزو البحرى فى البحر المتوسط وإضافة أمجاد عربية بحرية جديدة . وفى عهد عبد الملك بن مروان ازداد خطر المردة (الجراجمة) . فعقد عبد الملك معاهدة مع الإمبراطور الرومانى جستنيان الثانى (٦٨٥ — ٦٩٥ م) من شروطها وقف خطر الجراجمة ونقل معظمهم إلى بعض أرجاء الدولة الرومانية قليلة السلطان مثل رومانيا وتراقيا . وبذلك حطم الإمبراطور

ذلك « الحائط النحاسى » الذى كان سداً منيعاً عرقل تيار الفتوحات الإسلامية (العدوى ص ٦٨)

وبرغم انشغال عبد الملك بن مروان بالمشاكل الداخلية والثورات والفتن ، مما جعله يصرف نظراً عن معاودة فتح القسطنطينية ، إلا أنه لم يهمل شأن تنمية الأسطول العربى ، ففى عهده أنشئت أول دار كبيرة للصناعة ، وقد بنيت فى تونس ، فقد أمر عبد الملك واليه بأفريقية حسان بن نعمان ببناء دار الصناعة ، فأنشأ السفن وزودها بالعدد والسلاح ، وبعث فيها المقاتلة لغزو جزيرة صقلية .

لم يقدر للصلح بين عبد الملك بن مروان وجستنيان أن يستمر طويلا ، ففى عام ٦٩٣ م عادت الحرب مرة أخرى . ويرجع السبب فى ذلك أن عبد الملك ضرب الدينار الذهبى العربى لأول مرة ، ونقش عليه نصاً بالعربية ولم ينقش عليه صورة القياصرة البيزنطيين ، فأعلن جستنيان الحرب ، لكن يبدو أنه تسرع فى اتخاذ هذا القرار ، وخاصة أنه عجز عن الاستفادة من المردة ، كما أخفق فى الضغط على دمشق ، وانتهى أمره بهزيمة منكرة على حدود آسيا الصغرى ، ثم إن طرده لكثير من أهل قبرص من جزيرتهم أثار شعوراً من المرارة فى نفوس قواته البحرية من أهل الجنوب . وفى عام ٦٩٨ ثار البحارة الكريتيون ، ونادوا بأمير أسطولهم أسبمار إمبراطوريًّا للدولة الرومانية ولُقِّب (طيباريوس الثالث) . وأجبر الإمبراطور

الجديد إلى القسطنطينية فلم تقاوم المدينة قواته . وفر الإمبراطور المعزول (جستنيان الثانى) إلى القرم ومنها إلى مملكة الخزر ، ومكث فى منفاه عشر سنوات حتى عاد سنة ٧٠٥ منتصراً إلى القسطنطينية .

شغلت هذه الأحداث الرومان ، كما سمحت للأمويين بالفوز بالنصر فى شمال أفريقية . ففى سنة ٨٩٣ أرسل عبد الملك ابن مروان حملة حربية ضخمة قوامها ٤٠,٠٠٠ رجل بقيادة حسان بن النعمان الذى تمكن بمساعدة الأسطول العربى أن يقضى على المعاقل الرومانية على ساحل البحر المتوسط واحداً بعد آخر . وفى عام ٦٩٥ سقطت قرطاجنة عاصمة أفريقية الرومانية فى يد العرب . ولكن الرومان حرضوا البربر على الثورة فثاروا بزعامة الكاهنة ، واستطاع أسطول بيزنطى بقيادة حنا بطريق صقلية استعادة قرطاجنة . ولكن العرب استردوا قرطاجنة عام ٦٩٨ وقتلت الكاهنة وانتهى الحكم الرومانى فى أفريقية نهائياً .

وتبع ذلك أن أظهر الخليفة عبد الملك بن مروان اهتمامه الشديد بالقوة البحرية ، ويمكن إرجاع هذا الاهتمام إلى ما قاساه أول عهده على يد بحرية أعدائه الرومان . لذلك نجده يأمر موسى بن نصير والى أفريقية بإنشاء قاعدة بحرية هناك ويرسل له ألف قبطى مصرى من بناة السفن — مع عائلاتهم — لمعاونته على بناء أسطوله يضاف إلى هذا استيلاء العرب على جزيرة

قوصرة قرب الشواطئ الأفريقية ، وسيطرتهم على المضيق الفاصل بين الشاطئ وجزيرة صقلية .

لم يبن موسى بن نصير قاعدته البحرية أو دار صناعة فى قرطاجنة ، بل اختار موضعاً جديداً ، يطل على بحيرة ، ثم حفر قناة تصل ذلك الموضع بالخليج القريب . وفى هذا المكان قامت مدينة تونس وهجرت قرطاجنة تماماً . ثم غدت تونس قاعدة أمينة للأسطول البحرى ، بعيدة عن أية مغامرة رومانية بحرية . وفى ظل هذا الاستقرار المأمون الجانب ، بنى موسى بن نصير مائة سفينة حربية فى القاعدة البحرية الجديدة . وانضم هذا الأسطول عام ٧٠٤ م إلى الأسطول الأموى الذى كان يعمل فعلا فى البحر المتوسط . وأصبح شمال أفريقية مركزاً بحرياً ثالثاً ، أضيف إلى المركزين العربيين القديمين فى الشام ومصر .

وسرعان ما أثبتت القاعدة البحرية الجديدة فى تونس فائدتها ففى عام ٧٠٣ م أغار أسطول مصر على صقلية ، وهبت عاصفة شديدة هددته بالفناء فلجأت سفنه إلى القاعدة الأمينة فى تونس . أما الأعظم أهمية من كل هذا فهو السفن الجديدة التى أشرف على بنائها موسى بن نصير ، والتى أرسلها للإغارة على صقلية وربما للإغارة على سردينية أيضاً عام ٧٠٤ ، ثم قاد موسى الأسطول بنفسه عام ٧٠٨ نحو جزر البليار ، وأغار على جزيرة مايورقة وأسر حاكمها البيزنطى ، وكانت جزيره سردينية هى الغنيمة سنة ٧١٠م .

لم يكن هذا العمل البحرى مجرد غارات عرضية ، بل كان وفق خطة محكمة ، فإن موسى — وقد كان يعمل فى فتح المغرب إلى المحيط الأطلسى — استخدم أسطوله من قاعدته فى تونس ، ليشل تهديد الأسطول الرومانى من قواعده فى صقلية وسردينية وجزر البليار (١) .

العودة إلى مشروع فتح القسطنطينية :

تميز عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك بالهدوء ، والاستقرار الداخلى ، مما أتاح له فرصة معاودة سياسة الفتح ، فقد أكملت الجيوش العربية فتح شمال أفريقية ، ثم فتحت بلاد الأندلس فتم للعرب السيطرة على السواحل الشرقية والجنوبية والغربية للبحر المتوسط ثم بدأ الوليد يوجه همه نحو الساحل الشمالى ، فعاود محاولة أسلافه فى فتح القسطنطينية ، وأعد حملة بحرية كبيرة لفتحها ، ولكن الوليد مات قبل إبحار الحملة إلى القسطنطينية ، فتولى إكمال المشروع خليفته سليمان بن عبد الملك

بدأ سليمان بن عبد الملك يستعد لفتح القسطنطينية ، ورسم خطة فتحها براً وبحراً ، وعين أخاه مسلمة بن عبد الملك قائداً ، وحاصرت الجيوش العربية القسطنطينية براً ، فى نفس الوقت الذى حاصرها الأسطول العربى بحراً بقيادة

---

(١) لويس : القوى البحرية والتجارية ص ١٠١

أمير البحر سليمان (سمى الخليفة) .

كان نجاح العرب فى فتح القسطنطينية رهناً بنجاح الأسطول الإسلامى فى التعاون مع القوات البرية فى إكمال الحصار وفرض حلقة منيعة فى البحر ولذا كان أول هدف أمير البحر الإسلامى هو قطع المواصلات البحرية بين القسطنطينية وبين البحر الأسود شمالا ، وبينها وبين بحر مرمرة وبحر إيجة جنوباً .

نجح سليمان فى تنفيذ الشطر الأول من خطته فى قفل الباب الجنوبى ولكن عندما انتهز فرصة هبوب رياح مواتية وبعث قسما من أسطوله لاحتلال مدخل البحر الأسود وقعت كارثة قلبت الخطط الإسلامية رأساً على عقب ؛ إذ كانت هذه المنطقة صعبة الملاحة بسبب انحدار تيار مائى من البحر الأسود عبر البسفور إلى بحر مرمرة ، وفضلا عن ذلك لا تستطيع السفن الصاعدة ضد هذا التيار الاعتماد على تسخير الرياح فى جانبها زمناً طويلا . وهذا ما حدث للسفن الإسلامية التى أبحرت فى تلك المنطقة لسد المدخل الشمالى ، إذ سارت ببطء شديد من جراء التيارات المائية ، ثم لم تلبث الرياح أن غيرت اتجاهها ، فوقع الاضطراب بين السفن التى ارتطمت ببعضها البعض وفقدت توازنها . وفى هذه الأثناء بعث الروم سفناً محملة بالنار الإغريقية أتمت حلقة الاضطراب فى الأسطول العربى الإسلامى وقضت على خطة أمير البحر سليمان .

تولى الدفاع عن القسطنطينية أحد أباطرة الرومان وهو

(ليو الثالث) واستطاع أن ينقذ من حصار المسلمين ، وساعدته الطبيعة فقد بدأ الشتاء ببرده القارس وثلوجه المتراكمة مما أدى إلى توقف نشاط العرب المسلمين الحربى . حتى إذا انقشع الشتاء عاود العرب نشاطهم وقدمت إليهم نجدات بحرية من مصر وشمال أفريقية ، ولكن القسطنطينية كانت على جانب كبير من التحصين فاستطاعت الصمود . استمر حصار القسطنطينية طوال خلافة سليمان بن عبد الملك ، وبعد اثنى عشر شهراً من الحصار ، توفى سليمان وخلفه عمر بن عبد العزيز وكان من سياسته التفرغ للإصلاحات الداخلية دون الانشغال بالحروب الخارجية ، فأمر أسطوله برفع الحصار عن القسطنطينية والعودة إلى الشام .

تعتبر النتائج العامة لمعركة القسطنطينية حدثاً من الأحداث الكبرى فى تاريخ العصور الوسطى ؛ إذ جعلت كلا من الدولة العربية الإسلامية وإمبراطورية الروم تتطلع إحداهما إلى الأخرى بمنظار جديد قوامه أن الدولتين لابد وأن يعيشا جنباً إلى جنب لاغنى لإحداهما عن الأخرى فى التعاون على قضاء مصالحهما العامة ، وإن الجشع فى الاستئثار ببعض الفوائد المادية مثار لحروب لاجدوى من ورائها[1] .

كان يتحتم على الدولة الرومانية بعد نجاة عاصمتها

---

(١) العدوى : ص ٦٩ — ٧٠ .

القسطنطينية أن توقف حروبها البحرية فى الحال ، ولكنها بدلا من ذلك استمرت فى حروبها استغرقت ثلاثين سنة تقريباً وسبب فشل الدولة الرومانية فى الاستفادة من انتصارها العظيم يرجع إلى الخلافات الدينية الشديدة فى الدولة الرومانية إذ عمد الإمبراطور المنتصر ليو الثالث ، إلى ما عمد إليه سلفاه جستنيان وهرقل ، من اختيار لحظ الانتصار للزج بالإمبراطورية فى خلافات دينية . وجاء الخلاف نتيجة تحيز ليو الثالث للحركة اللاأيقونية الجديدة ومحاولة فرضها بالقوة على الإمبراطورية النافرة منها عام ٧٢٥ م .

أدت المشاكل الداخلية فى الدولة الرومانية إلى شل نشاط الأسطول الرومانى ، فعاود الأسطول العربى الأموى هجومه . وفى عام ٧٢٦ أغار أسطول عربى على جزيرة قبرص وفرض عليها جزية كبيرة كالتى فرضت زمن عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ولم يكن الوضع فى الدولة الرومانية يسمح بالقيام بهجوم مماثل قبل مضى عشر سنوات على الأقل . وحاول الرومان سنة ٧٣٦ الإغارة على مصر ، ولكن العرب قابلوا هذا الهجوم بغارة بحرية على جزيرة قبرص عام ٧٤٣ وحملوا معهم عدداً كبيراً من سكان الجزيرة واحتفظوا بهم أسرى فى الشام .

كانت مصر وقبرص هما هدفى الهجوم الرومانى والعربى . أما أساطيل العرب فى شمال أفريقية فكانت تقوم بالهجوم من

وقت إلى آخر على صقلية وسردينية ، والرومان لا يستطيعون رد هذا الهجوم بالمثل .

الأسطول العربي في مصر :

تشهد الأوراق البردية التي ترجع إلى العصر الأموى في مصر أن الولاة كانوا يطلبون عمالا وصناعاً وملاحظين للعمل في دور الصناعة والمساهمة في إعداد الأسطول المصرى الحربى ، وكان الولاة ينفقون مقدماً على أجور هؤلاء العمال والملاحين الذين يعملون في الأسطول ، وكذلك كان يُفرض على الكور قدر من الأدوات والآلات المختلفة اللازمة لصناعة السفن ولتنظيفها كما كان يفرض عليها تموين الملاحين الذين يشتغلون في إعداد الأسطول

وقد ظلت صناعة السفن الحربية زاهرة في مصر طوال عصر الولاة والمعروف أن بناء السفن كان في البداية بمصر فقط ، وظل كذلك إلى خلافة معاوية بن أبي سفيان حين أمر بإنشاء دار للصناعة في عكا . وإذا كان الفضل لعظمة الخلافة البحرية يرجع إلى الشعوب التي فتحوها والتي تعلموا منها هذا الفن ، والتي استخدموها في حاجاتهم البحرية ، فلنا أن نقول غير مبالغين بأن الفضل الأكبر والأول يرجع إلى مصر والمصريين[١] .

---

(١) مصر في عصر الولاة ، ص ٥٧ .

كانت مصر مركز بناء السفن فى العصر الأموى . ففى الفسطاط والقلزم بنيت السفن العربية الأولى ، واستقدم معاوية بناة السفن من المصريين ليبنوا سفن الأسطول الشامى فى عكا ، وسرعان ما أصبحت هذه المدينة أهم قاعدة بحرية فى سورية . وفعل عبد الملك بن مروان ما فعله معاوية ، إذ أوفد عمالا مصريين إلى شمال أفريقية حيث بنوا — بعد عام ٧٠٠ م — أول أسطول بحرى إسلامى لموسى بن نصير . وخلال أربعين عاماً بعد الفتح ، بلغ ما أنفقه متولو بناء السفن فى مصر ٧٠٠ دينار سنوياً [١] . والمشكلة الرئيسية التى واجهها الموكلون بناء السفن فى مصر قلة الأخشاب . وكانت معظم قوات الأسطول فى السنوات الأولى تتكون من الوطنيين السوريين والمصريين فى الموانى الساحلية ، ثم ساد نظام أدق فيما بعد ، ولا سيما زمن خلافتى عبد الملك وابنه الوليد . فكانت تستدعى فرقاً من المدن الساحلية لتلتحق بالقوة البحرية العاملة ، مثلما كان يحدث فى حالة الأساطيل الإقليمية الرومانية .

الأسطول العربى الأموى يسيطر على البحر المتوسط :

انقسم الأسطول العربى فى العصر الأموى إلى خمسة وحدات أسطول الشام ورئاسته فى اللاذقية ، وأسطول أفريقية (أى

---

(٢) القيروانى ص ١٢٠ ، اويس ص ١٠١

تونس) ، وأسطول مصر (وكانت الإسكندرية نقطة إبحاره) وأسطول النيل (ومقر رئاسته فى بابليون) ، وأسطول خاص لحراسة مداخل النيل من نزول الرومان على السواحل وكانت دور صناعة السفن الرئيسية فى مصر توجد فى بابليون والقلزم[١]. وقامت دار صناعة تونس وحدها ببناء مائة سفينة فى عهد ولاية موسى بن نصير القصيرة الأمد . ونستطيع أن نأخذ فكرة عن ضخامة الأسطول العربى الإسلامى من الحقيقة التى تروى بأنه اشترك فى حصار القسطنطينية سنة ٧١٧ م أسطول عظيم مكوّن من ١٨٠٠ سفينة .

وانقسمت البحرية الإسلامية إلى قسمين منفصلين : أسطول البحر المتوسط ، وأسطول المحيط الهندى . وكانت نماذج السفن التى استخدمت فى البحر المتوسط تربط سويا بالمسامير أما فى المحيط الهندى فتخاط مع بعضها بعضاً . وكان هذا الاختلاف وليد التقاليد المتبعة ، وإن كان ينسب عدم استخدام المسامير إلى القول بأن الماء الملح يأكل المسامير . وكانت سفن البحر المتوسط أكبر من سفن البحر الأحمر والمحيط الهندى[٢]

تحدّى العرب الأمويون سيادة الرومان البحرية فى البحر المتوسط ثلاث مرات . الأولى ، وكانت بصفة أساسية دفاعية

---

(١) Muir . The Caliphate p. 392

(٢) المسعودى : مروج الذهب ﺣ ١ ص ٣٦٥ .

فى حقيقة أمرها . وقد بدأت عام ٦٤٨ م وانتهت بانتهاء غير حاسم سنة ٦٥٥ م ، ولو أن العرب انتصروا انتصاراً باهراً فى تلك السنة . والثانية ، وهى غارات هجومية ، وبدأت عام ٦٦٩ واشتملت على حصار عظيم للقسطنطينية دام سبع سنوات ، والثالثة ، وهى أشد الموجات جدية ، وبدأت عام ٦٩٣ واستمرت قرابة ستين عاماً وانتهت عام ٧٥٢ ، وشهدت انتصار العرب وخاصة فى الجانب الغربى من حوض البحر المتوسط ، كما اشتملت على حصار ثان كبير للقسطنطينية .

قضى العرب الأمويون أثناء الموجة الثانية من هجومهم على مراكز دفاع أعدائهم البرية والبحرية فى المنطقة الوسطى من حوض البحر المتوسط، ويكونون بذلك قد طوقوا أحد أجنحة القسطنطينية البحرية ، كما أضافوا شمال أفريقية وإسبانيا إلى أملاكهم ، وخرجت من قواعدهم بشمال أفريقية فى القرن التالى ، وحدات بحرية للانتقام من هزيمة عام ٧٤٧ البحرية .

وثمة نتيجة أخرى خطيرة لذلك الصراع بالنسبة للدولة الرومانية تتلخص فى المصير الذى انتهت إليه فى إيطاليا . حقيقة بذل كثير من الحكام البيزنطيين جهوداً كبيرة لفرض مذهب الإرادة الواحدة ، ثم المذهب إللا أيقونى على الشعب الإيطالى والبابوية المتمنعة — مما يعتبر سبباً لما ضاع على الدولة الرومانية هناك — ولكن السبب الأكبر يرجع إلى اشتغال القسطنطينية بصراع بحرى وبرى مع العرب الأمويين .

كانت الأساطيل العربية الأموية تقابل الأساطيل الرومانية فأسطول الشام يقابل أسطول (كبيرهايوت) فى آسيا الصغرى وأسطول شمال أفريقية العربى يقابل أسطول صقلية الرومانى ، وأسطول مصر يقابل الأسطول الإمبراطورى فى القسطنطينية . وانعقد لواء كل واحد من هذه الأساطيل لأمير من أمراء البحر . وكان أسطول مصر ، من بين هذه الأساطيل الثلاثة ، أكثر أهمية وأضخم عدداً . والواضح أنه فى الحملات المشتركة مثل الحصارين اللذين فرضا على القسطنطينية ، وفى الاشتباكات الكثيرة ، لتلك التى حدثت فى ليديا عام ٦٥٥ م ، وعلى مقربة من قبرص عام ٧٤٧ م ، كان أمير البحرية المصرية هو القائد العام للجميع ، وغالباً ما اشترك الأسطولان المصرى والشامى فى عمليات واحدة ، على حين استقل أسطول شمال أفريقية بعملياته عنهما . وشاهد الحصار الثانى للقسطنطينية فقط ، الأساطيل العربية مجتمعة .

ونجد تشابهاً آخر بين التنظيمات العربيـــة والبيزنطية فى المغرب على حد سواء . فقد تمتع أسطول صقلية باستقلال مشابه لما تمتع به أسطول شمال أفريقية .

السيادة العربية التجارية فى البحر المتوسط :

كان القرن السابع الميلادى عصر تجارة غير مقيّدة فى البحر المتوسط وحرية التجارة هذه هى التى تفسّر لنا مقدار

مابلغته مصر من رخاء حتى عام ٧٠٥ م ، وهذا برغم الحروب والغارات البحرية . ويقول الرحالة الأوربى (آركولف) الذى زار مصر عام ٦٧٠ ، إن الإسكندرية أصبحت ملتقى تجارة العالم كله ، وتوافدت عليها أعداد غفيرة من التجار لشراء ما بها من بضائع . وهذا الرخاء الذى عم وادى النيل حوالى عام ٧٠٠ م ، جعل واليها يبعث إلى دمشق العاصمة الأموية يبلغها أن خزائنه لم تعد تتسع لقبول موارد جديدة ، ويطلب من الخليفة أن يدله على ما يفعل ، فجاءه الرد بأن ينفق الفائض فى بناء المساجد .

وعم المدن الساحلية والداخلية بالشام رخاء مماثل وانتفعت العاصمة دمشق بما تدفق فيها من أموال الغنائم والخراج على خزائن الخلفاء من ولاياتهم فى الغرب وفى الشرق . وكانت المناطق الساحلية من الشام تمد الأسطول العربى بقوات بحرية كبيرة .

ظلت الصلات الاقتصادية قائمة بين إسبانيا وفرنسا من جهة وبين شرق البحر المتوسط من جهة أخرى . وكانت فرنسا الميدان الذى اختص به التجار السوريون أنفسهم . وظل جنوب فرنسا حتى عام ٧١٦ م يستورد البردى والتوابل وغيرهما من منتجات الشرق واحتفظت مرسيليا بمركزها كميناء هام . وكان من بين الوارد إليها زيت الزيتون من شمال أفريقية ، وكذا البضائع الشرقية . ونشطت كذلك موانئ إسبانيا فى تجارتها

مع شرق البحر المتوسط أواخر أيام القوط الغربيين.

تغيرت طبيعة الصراع بين الأمويين والرومان فى الفترة من ٦٩٣ حتى ٧٥٢ م . ذلك أن الموجتين الأوليين من الغزو العربى ، استخدمت فيهما أدوات القتال فقط أما الموجة الثالثة فقد تطرق إليها عنصر اقتصادى فأضيف إلى الصراع الحربى والبحرى صراع اقتصادى . وكان العرب البادئين بإشعال هذه الحرب الاقتصادية زمن الخليفة عبد الملك بن مروان . فى عام ٦٩٢ ضرب الخليفة أول دينار ذهبى عربى ، كما أوقف تصدير ورق البردى من مصر إلى القسطنطينية والبلاد الغربية كما أزال من هذا الورق علامة الثالوث المسيحية البيزنطية وأحل محلها نصاً عربياً . وهدف الخليفة من ذلك أنه اراد أن يقيم سلطانه على أساس اقتصادى مستقل ، وأن ينزل بأعدائه نوعاً من الضغط الاقتصادى ، وكان هذا أيضاً بمثابة إعلان لاستقلاله الاقتصادى عن الدولة الرومانية .

حاول الرومان أن يشنوا على الدولة الأموية حرباً اقتصادية فى عام ٧١٥ يشد أزرها الأسطول ، فأغلقت البحر المتوسط فى وجه السفن والتجارة القادمة من البلاد العربية ما دامت هذه لم تسر فى المسالك البحرية التى رسمتها وتتبع التعليمات التى أصدرتها لكن الدولة الرومانية لم تكن تستطيع الاستغناء عن جميع منتجات العالم العربى ، فالتوابل والبضائع الشرقية التى يقوم العرب فى تجارتها بدور الوسيط ، هى موارد ضرورية

لسلامة الاقتصاد الروماني . وعلى هذا فلم يحاول الروم فرض حصار شامل إطلاقاً ، فخصصوا ميناء أو اثنين لاستقبال تلك التجارة وفرضوا عليهما الرقابة ، ومن هذه الموانى طرابيزون . وكانت هذه الرقابة التجارية تُنفّذ على العرب والرعايا الرومان على حدّ السواء . وأثارت هذه الرقابة احتجاج الرومان أنفسهم ، لأن التجارة مع العرب عصب حياة التجار الرومان الاقتصادية .

اهتم العرب والروم بالمحافظة على الأوضاع الاقتصادية فى مناطق الشرق الأدنى المطلة على حوض البحر المتوسط الشرقى لما تقوم به تلك المنطقة من دور فعال فى حركة التبادل التجارى بينهما . فكانت هذه المنطقة تتحكم فى أطراف الطرق التجارية الآتية من بلاد الشرق الأقصى سواء البحرية منها أو البرية ، واتجهت إليها دولة الروم لاستيراد المتاجر الشرقية . والمتتبع لانتشار الإسلام فى هذه البقعة التجارية الهامة يرى أن المسلمين جهدوا منذ أيامهم الأولى على تقوية أركان حياتها التجارية وبعث حياة جديدة فيها ، لا أن يهدموا أسسها ويقوضوا أركانها على نحو ما توهم كثير من أصحاب النظريات السطحية فى دراسة التاريخ الإسلامى[١] .

وأدرك أهالى البلاد المفتوحة أن العرب الفاتحين ليسوا شعباً متبربراً أو متغطرساً يضع العقبات فى سبيل الحياة

---

(١) العدوى ص ١٤٣ .

الاقتصادية تسير فى مجراها الطبيعى ، ويحوطونها بتشجيعهم ورعايتهم . فقد أدرك العرب ما للتجارة من أهمية فى حياة هذه البلاد التى ارتادتها قوافلهم مراراً قبل ظهور الإسلام . وجنى الروم فائدة عظيمة من الرواج الذى أصاب البلاد الإسلامية المطلة على البحر المتوسط الشرقى [١] .

---

(١) لويس : القوى البحرية والتجارية

٣ـ السيادة العربية فى البحر المتوسط فى العصر العباسى

الصدام البحرى بين العرب والروم :

تكاتفت عدة عوامل داخلية على سقوط الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية فى بلاد العراق. ولاشك أن انتقال عاصمة الدولة العربية الإسلامية من دمشق بالشام القريبة من البحر المتوسط إلى بغداد ، وهى أكثر بعداً عن البحر المتوسط له أثره فى الأسطول العربى فى البحر المتوسط فقد أصبحت بغداد بعيدة أيضاً عن القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية . وبعد أن كانت الغارات العربية والرومانية فى العصر الأموى ترمى إلى الفتح والاستيلاء على المدن أصبحت الإغارات التى شنها الطرفان تهدف إلى الانتقام السريع والسلب والنهب وتخريب المدن والحصون ، وأدى هذا بالتالى إلى تحصين الحدود والموانى فقام فى الدولة الإسلامية ما نسميه بالعواصم والثغور .

بدأ الصدام البحرى بين العرب والروم منذ ظهور الدولة العباسية . فقد بدأ الروم بغارات بحرية ضيقة النطاق ، ولم تلبث أن تطورت إلى حركات بحرية منظمة ، منها ما قام به القائد المسلم ثمامة بن وقاص (الذى يسميه الرومان باناكيس) فقد قام بحملة برية بحرية سنة ١٥٧ هـ (٧٧٣ م) على شواطىء

إقليم إيسورة بآسيا الصغرى للإغارة على بعض المدن الساحلية فأرسل الإمبراطور قنسطين الخامس أوامره إلى الجيش والأسطول المقيم فى آسيا الصغرى بالتوجه إلى إقليم أيسورة وقطع خط الرجعة على ثمامة ، واستطاعت سفن الروم احتلال المياه الإقليمية لشاطئ أيسورة عند مدينة سيس (Syce) وقطعت الاتصال بين ثمامة وسفن الشام التى أبحرت معه . على حين ألغى جيش الروم الحصار على قوات ثمامة البرية . وإذا كان ثمامة استطاع أن يفلت من حلقة الحصار البرى والبحرى التى فرضت حوله فإنه الجدير بالملاحظة هنا هو ظهور نشاط أساطيل المسلمين والروم لشدّ أزر الحركات البرية [١] .

الثغور والعواصم :

يُراد بالثغور والعواصم حدود الدولة العربية الإسلامية برّاً وبحراً . كان العرب حينما قدموا لفتح الشام بدأوا ببرّها من جهة حوران مما يلى الصحراء ، لأن قوات الروم كان معظمها فى مدن السواحل ، فجعلوا فتوحهم تمتد من البرّ نحو البحر ؛ وبعد أن فتحوا دمشق اتجهوا نحو السواحل بقيادة يزيد بن أبى سفيان وأخيه معاوية ، وكان الجيش الذى فتح دمشق بقيادة أبى عبيدة بن الجراح [٢] . وفتح العرب بيروت

---

(١) العدوى ص ١٠٥ . (٢) جرجى زيدان ﺟ ١ ص ٢١١ .

وصيدا وجبيل بسهولة . ولكن الروم استطاعوا أن يحشدوا أساطيلهم في البحر فاستردوا هذه المدن مرّة أخرى ، وظلت هذه المدن في أيدي الروم حتى تولى الخلافة عثمان بن عفان وتولى معاوية حكم الشام ، فنجح معاوية في فتح طرابلس وغيرها من مدن الشام وكان معاوية — كما رأينا — يهوى الغزو البحري ، فألح على عثمان في السماح له به ، ووافق عثمان ، ونجح معاوية في الاستيلاء على ثغور الشام ، وانتقل العرب وأهالي الشام إلى هذه الثغور فأصبحت مدناً كبيرة عامرة .

كانت أبرز ثغور الشام في عصر الخلفاء الراشدين أنطاكية فكان المسلمون يغزون ما وراءها . وكان للروم بقية في بعض المسالح فيما بين الإسكندرية وطرسوس ، فلما تولى بنو أمية أتموا فتحها ، وزادت عمراناً في العصر العباسي ، وجعلوا فيها الحامية والسلاح لدفع غارات الروم ، لأنهم كانوا مستمرين في مناوأة العرب . فبنى العرب حصوناً بها ، ورمموا الحصون التي كان الروم قد بنوها ، وجعلوا لأهلها عطاء كبيراً وأمروهم بالغزو .

وكما اهتم العباسيون بتحصين الحدود البحرية ، فقد اهتموا أيضاً بتحصين الحدود البرية ، فاتخذوا مدناً حصينة جعلوها ثغوراً يقيمون فيها الجند والسلاح في قلاع الدفع العدو أو لغزو بلاده . وكان هذا الخط الدفاعي البري يسير على امتداد جبال طوروس من الفرات الأعلى إلى حدود قليقيا .

كان أسطول الروم ينقسم إلى قسمين : الأول الأسطول الإمبراطورى ومقره مياه القسطنطينية ويعهد إليه بالدفاع عن العاصمة ، والقسم الثانى هو أسطول الأقاليم . وكان الأخير يضم أسطول أقليم (كبيرا) فى غرب آسيا الصغرى ، وأسطول جزر بحر إيجه وهذه الأساطيل الأخيرة هى التى وقفت بالمرصاد لنشاط السفن العربية واشتبكت معها مراراً .

كان للخليفة العباسى هارون الرشيد الفضل الأول فى تحصين العواصم والثغور من أجل حماية الحدود العربية الإسلامية فقد أسس إقليما مشابهاً لإقليم الأطراف عند الروم على حدود البلاد الإسلامية الشمالية وسماه إقليم العواصم والثغور، وعاصمته أنطاكية وجعل عليه ابنه المعتصم .

أطلق المسلمون أول الأمر اسم العواصم على الولايات المتاخمة للدولة البيزنطية شمالى العراق والشام ، والثغور هى المراكز العسكرية لهذه الولايات المتطرفة ، وكانت تقوم عادة على المداخل إلى بلاد الروم ، وعلى الموانى التى تصدر منها الأساطيل للغزو . ولم يستقر نظام العواصم والثغور إلا فى العصر العباسى ، وفى أيام هارون الرشيد بصفة خاصة ، والأغلب أن الذى حفز الرشيد على وضع نظام هذه الولايات هو تحويل الدولة البيزنطية — على أيام الأسرة المقدونية . لولاياتها المتاخمة للدولة الإسلامية إلى ولايات عسكرية تسمى واحدتها تيما

ويسميها العرب البنود .

كان إقليم العواصم والثغور الجديدة وعاصمته أنطاكية ، قسما من أرض قنسرين فصله هارون الرشيد عنها تماماً ، وشمل حلب ومنبج وأنطاكية غرباً إلى الساحل .

يقصد بلفظ العواصم سلسلة الحصون الداخلية الجنوبية بطرقها الحربية ، لأنها تعصم الحدود وتعينها على صد غارات الروم . وفي نفس الوقت للتمييز بينها وبين الحصون الشمالية الخارجية الملاصقة لحدود الروم . وهي الحصون التي سميت بإقليم الثغور لمواجهتها للثغرات أو المنافذ في أرض العدو . وكان إقليم الثغور ينقسم قسمين : أحدهما في الشمال الشرقي ويسمى بالثغور الجذرية التي تدافع عن شمال العراق ، ومن حصونها الهامة زبطرة وحصن منصور والحدث . والقسم الثاني يسمى بالثغور الشامية في الجنوب الغربي حيث يقترب من ساحل خليج الإسكندرية ، ومن أهم حصون ذلك القسم المصيصة وأدنة وطرسوس [١] .

كانت العواصم ولايات عسكرية يحكمها قواد عسكريون ويسري فيها القانون العسكري لا المدني . وتبعاً لذلك كانت الثغور قواعد عسكرية صرفة ، لا يقيم فيها غير الجنود والمجاهدون والمتطوعة ، الذي يطلق عليهم لفظ الصعاليك كما يقول البعض [٢]

---

(١) العدوي ص ٩٠ .

(٢) جرجي زيدان جـ ١ ص ٢١٢ .

وبالإضافة إلى الثغور الشامية والجزرية المذكورة هنا ، كانت هناك ثغور السند فى أقصى المشرق ، والثغور الأندلسية وهى ثغور الأندلس الشمالية ، وكانت ثلاثة : الثغر الأعلى وقاعدته سرقسطة ، والثغر الأوسط وقاعدته مدينة سالم ، والثغر الأدنى وقاعدته الأشبونة .

أصبحت ثغور الشام ومصر هى الحدود البحرية . فإذا عددنا الثغور الشامية من الشمال كان أولها طرسوس فأدنة فالمصيصة وعين زربة والكنيسة والهارونية وإياس ونقابلس أما ثغور مصر فمنها رفح والعريش ودمياط والإسكندرية .

كان العرب المسلمون يخرجون من هذه الثغور كل سنة للغزو البحرى ، جهاداً فى سبيل الإسلام . فكانت السفن العربية تجتمع فى ثغور مصر والشام، ثم تلتقى فى جزيرة قبرص وكان عددها حوالى مائة سفينة يطلق عليها جميعاً لفظ (أسطول) وكان يتولى قيادة هذا الأسطول صاحب سفن الثغور الشامية ، وكانت مصروفات الأسطول مائة ألف دينار .

نشاط الأسطول العربى الحربى :

كان أعظم الأساطيل العربية فى العصر العباسى الأسطول العربى بالأندلس والأسطول العربى بالشام . وقد بدت عظمة أسطول الأندلس فى إغاراته على مارسيليا عام ٧٦٨ م ، كما هدد إيطاليا عام ٧٧٨ ، وغزا ناريون عام ٧٩٣ م . ووجه

الأمويون فى الأندلس هجماتهم البحرية ضد إمبراطورية الفرنجة ، وقام صراع عنيف بين هاتين القوتين حول السيطرة على إيطاليا . بل كان الأمويون بالأندلس يتحالفون أحياناً مع الرومان البيزنطيين ضد الفرنجة .

أما الأسطول العربى بالشام فهو أسطول عباسى وجهوده دائماً ضد الدولة الرومانية ، وقام بغارات كثيرة ناجحة ، أبرزها غاراته المستمرة على جزر قبرص وكريت . وبينما كان الأسطول العربى العباسى يقوى يوماً بعد يوم بدأت الدولة الرومانية تهمل شأن قوتها البحرية منذ سنة ٨٠٠ م فى أوائل عهد الملكة إيرين ، حتى إذا تولى خليفتها (نقفور) كانت البحرية الرومانية فى أسوأ حال . بينما اهتمت أقاليم أربعة ، لا صلة لها بالدولة الرومانية ، بتقوية أساطيلها وتدعيم قواتها البحرية ، وهذه الأقاليم هى الأندلس ، والشام ، وشمال أفريقية ، والإمبراطورية الكارولنجية .

كانت غزوات الأسطول العربى تبعاً لفصول السنة ، فمنها غزوة صيفية تسمى صائفة ، أو شتوية تسمى شاتية ، أو ربيعية تقع من شهر مايو أى بعد أن يكون المسلمون قد أربعوا دوابهم وحسنت أحوال خيولهم ، فيقيمون فى الغزوة ثلاثين يوماً ، أى إلى العاشر من يونيو ، فكأنهم يجدون الكلأ حينئذ فى بلاد الروم ؛ فترتبع دوابهم ربيعاً ثانياً ، ثم يعودون فيقيمون ٢٥ يوماً أى إلى ٥ يوليو حتى تقوى الخيول فيجتمعون

لغزو الصائفة أى الصيف . ثم يغزون لعشر تخلو من يوليو فيقيمون إلى وقت عودتهم ستين يوماً ، وكانوا فى بعض السنين يغزون صائفتين ، يسمونهما الصائفة اليمنى والصائفة اليسرى أما فى الشتاء فغزواتهم قليلة ولا يبعدون فيها أكثر من عشرين ليلة ، ويكون ذلك فى آخر فبراير ، فيقيم الغزاة إلى أوائل مارس ثم يرجعون ويربعون دوابهم[1].

كانت إغارات العرب المسلمين على سواحل وأراضى الروم فى عصر الخليفة العباسى هارون الرشيد منتظمة سنوياً ، الذى توغل فى إقليم آسيا الصغرى وفاز بغنائم كثيرة ، وبث الرعب فى قلوب الروم ، حتى إن إمبراطورتهم إيرينى (الوصية على ابنها القاصر قنسطين السادس) قبلت دفع جزية سنوية لتجنب غزوات العرب ، ولم يرض الجيش الرومانى عما فعلت إيرينى فأرغمها على التنازل ، وتولى بدلها (نقفور) الذى تهكم الرشيد عليه فسماه (كلب الروم)[2] وأغار الرشيد على الدولة الرومانية مما اضطر نقفور إلى أن يوافق على دفع خمسين ألف دينار مقابل موافقة الرشيد على عقد الصلح .

وفى عصر الخليفة الرشيد وضع العرب والروم سياسة واحدة تنطوى على مراقبة سواحل العدو والهجوم عليها فجأة وإنزال أكبر خسارة ممكنة . فكان الأسطول الرومانى يراقب الشاطىء

---

(١) جرجى زيدان : تاريخ التمدن ج ١ ص ٢١٢ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ١٩٢ .

الشرق للبحر المتوسط ، ونجح فى سنة ٧٩٠ م فى أسر بعض السفن العربية ، وهى فى طريقها من مصر إلى الشام . ورد العرب على غارة الروم هذه ، فأغار الأسطول العربى على جزيرة قبرص ، ونزل العرب على أراضى الجزيرة ، وقدم الأسطول الرومانى سريعاً لصد هجوم العرب ، ولكن الأسطول العربى أنزل بالروم هزيمة ساحقة وأسر أمير البحر الرومانى الذى أمر هارون الرشيد بقتله لرفضه التعاون مع العرب ، ثم بعث هارون فى سنة (١٩٠ هـ — ٨٠٦ م) حملة أخرى أغارت على قبرص وأنزلت بها كثيراً من التخريب وغنمت عديداً من الغنائم . وفى العام التالى أغار الأسطول العربى على جزيرة رودس وغنم العرب غنائم كثيرة أيضاً .

شهد عام ١٩٩ هـ (٨١٤م) غزواً بحرياً عربياً قام به عرب مهاجرون من الأندلس كانوا قد ثاروا على الخليفة الأموى بالأندلس وهاجروا بأسرهم وممتلكاتهم إلى مصر فأقاموا فى الإسكندرية ، ولكن العباسيين أرغموهم على الرحيل عن الإسكندرية فخرجوا بسفنهم إلى جزيرة كريت فأغاروا عليها واستطاعوا الاستيلاء عليها منتهزين فرصة انشغال الدولة الرومانية ببعض المشاكل الداخلية ، ورحب أهالى الجزيرة بقدوم العرب الأندلسيين لما كانوا يعانونه من اضطهاد الرومان لهم نتيجة الاختلافات الدينية المذهبية ، وبدأ العرب الأندلسيون يعملون على الاستقرار النهائى بجزيرة كريت ، فبنوا حصناً قوياً حفروا

حوله خندقاً عميقاً ، واتخذوا من هذا الحصن الكبير عاصمة لهم ، فأصبح اسم هذه العاصمة (الخندق) وقد تحرف هذا الاسم فأصبح الآن (Candia) وبعث الإمبراطور الرومانى ميخائيل الثانى أسطولا حاول استرداد جزيرة كريت من العرب الأندلسيين دون جدوى برغم تكرار المحاولات .

كان هؤلاء المسلمون الوافدون على الإسكندرية من الأندلس أول من كشف ضعف الدولة الرومانية ، فبعد أن طردهم العباسيون من الإسكندرية ، عبروا البحر إلى كريت ونزلوها دون مقاومة وسرعان ما دانت لهم الجزيرة وأقاموا لهم فى مدينة الخندق وكراً حصيناً من أوكار القرصنة وظلوا فى مركزهم ذاك مبعثاً للرعب والفزع لمنطقة بحر إيجه وللعرش البيزنطى مدة تبلغ قرناً ونصف قرن . ويبدو أن انعدام المقاومة أمامهم جاء نتيجة مباشرة لأحد أمرين : أولهما ما أصاب الأساطيل الإقليمية من دمار أثناء ثورة توماس قبل هذا الغزو بسنوات قلائل . والثانى عدم رضا سكان الجزيرة الإيجيين الميالين لعبادة الصور عن سادتهم فى القسطنطينية المخالفين لهم فى هذا الموضوع ، مما زعزع إخلاص أهل كريت لحكامهم وحولهم إلى الترحيب بعرب الأندلس المنفيين . ويحتمل أن يكون سبب انعدام المقاومة هو اجتماع الأمرين معاً .

وكانت جزيرة صقلية أيضاً مسرحاً لصدام الروم والعرب . فقد بعثت دولة الأغالبة فى شمال أفريقية سنة ٢١٢ هـ (٨٢٨ م)

فى عهد زيادة الله الأغلبى أسطولا عربيًّا قوامه سبعين سفينة عليها عشرة آلاف فارس لغزو جزيرة صقلية ، وكانت قد قامت فيها ثورة داخلية ضد الحكم الرومانى ، وكانت الدولة الرومانية تعانى كثيراً من المشاكل الداخلية ونجح العرب المسلمون فى السيطرة على معظم جزر اليونان وبحر إيجة ، وأصبح العرب على مقربة من العاصمة الرومانية القسطنطينية .

أغار أسطول الأغالبة على (البلوبونيز) وساعد السلاقيين فى حصارهم لمدينة (بتّراس) ويحتمل أن تكون هذه الحملة جزءاً من خطة عباسيّة عامة مؤداها الضغط على القسطنطينية برًّا وبحراً . إذ انتهى ذلك الغزو بعقد اتفاقية مدتّها عشر سنوات بين بطريق صقلية والأمير الأغلبى . ومع أن تلك الاتفاقية جُددت لعشر سنوات أخرى عام ٨١٣ ، إلا أنه يبدو أنها كانت معدومة الأثر ، ذلك أنها لم تمنع عرب شمال أفريقية من القيام بغارات على جزيرة سردينية عامى ٨١٢ و ٨١٣ ، كما هاجموا صقلية عام ٨٢٠ وعاودوا الهجوم على سردينية فى العام التالى .

لم يكن عمل الأغالبة عملا يسيراً ولا مجرّد غارة ، وإنما كان حملة قوية هدفها الاستيلاء على الجزيرة بأسرها . ونجحت الحملة إلى حدٍّ كبير بسبب ضعف أسطول صقلية البيزنطى ، ولأن قائده (إيوفيميوس) أسلمه للمسلمين بعد ثورة فاشلة . ومن الطريف أن نلاحظ أنه كان ثمة بعض التردد

بين المسئولين فى شمالى أفريقية حول القيام بهذه الحملة ، فلم يتخذوا القرار بالسير فيها إلا بعد عمل حساب لشتى العوامل . وبلغ عدد سفن الحملة . التى أبحرت من سوسة — بالإضافة إلى سفن إيوفيميوس — من سبعين إلى مائة سفينة ، جهزت بعدة آلاف من الرجال . وبهبوط الحملة أرض الجزيرة بدأت — كما حدث فى كريت — مرحلة جديدة فى تاريخها ، إذ انطوت صفحة السيادة البيزنطية ، وبدأت صفحة أخرى من النفوذ العربى الإسلامى على البحار ، وشعر عرب أفريقية وكريت — وهم حكام البحر المتوسط الجدد — أنهم ورثوا السلطان الذى تمتعت به القسطنطينية مدة طويلة — الذى سعى إليه الأمويون دائماً[١] .

السيادة العربية التجارية فى البحر المتوسط :

كان العرب فى العصر العباسى سادة البحر المتوسط ، فقد امتلكوا — إلى جانب الأسطول الحربى — أسطولا تجارياً ضخماً سيطر على التجارة فى البحر المتوسط ، وزاد النشاط التجارى العربى بعد سيطرة العرب على معظم الشواطئ والجزر .

---

(١) لويس ص ١٧٠ .

في العصر العباسي ، رحل الأسطول العربي التجاري في رحلات تجارية منتظمة بين أنطاكية في بلاد الشام والمحيط الأطلسي ، وكانت الرحلة تستغرق ستة وثلاثين يوماً ، وكان ميناء أنطاكية هو (سلوقية) التي أصبحت في العصر العباسي أهم مركز للتجارة في الشام . ولقد حصنها الخليفة العباسي المعتصم . وكان من أهم الموانى التجارية في الشام في العصر العباسي ميناء طرابلس وكان يتسع لألف سفينة . أما الميناء الحربي في بلاد الشام الذى خرجت منه الحملات الحربيّة ضدّ الدولة الرومانية فكان ميناء صور الذى كانت تحميه حصون هائلة . وامتدت المراكز التجارية ومخازن البضائع في المدن الهامة على الساحل الشرقي للبحر المتوسط .

فكرّ هارون الرشيد في حفر قناة في برزخ السويس ، وقد أدرك مدى الفائدة التي يعود بها صغر القناة ، ولكن الرشيد عاد فرفض تلك الفكرة على أساس احتمال إبحار السفن الرومانية عبر تلك القناة للإغارة على المدينتين المقدستين مكة والمدينة [1] .

كان من نتيجة الظروف السياسية والحربية أن حيل دون وصول سفن التجار المصريين والسوريين إلى غرب البحر المتوسط . وربما كان لسياسة العباسيين ومواصلة إجراءات الدولة الأموية على بلوغه من إغلاق غربي البحر في وجه العرب

---

(١) المسعودى : مروج الذهب .

المسلمين . واستمر حصر مرور التجارة الشرقية اللازمة لبيزنطة خاصة ، وبلاد الغرب عامة ، عبر ثغر طرابيزون على البحر الأسود وهذه التجارة هي المستوردة من الوسطاء العرب في بلاد فارس والعراق،وربما سمح الروم لبعض التجارة أن تمر عبر مصر وسورية ، على أنه من المؤكد أن هذا كان يخضع لإشراف دقيق . وإلى جانب هذا فلابد أنهم اشترطوا أن تأتى السلع القسطنطينية أولا . وثمة بعض منتجات شرقية أخرى — مثل التوابل والمنسوجات الحريرية — وصلت الدولة الرومانية طريق بلاد الخزر .

أدت رقابة الدولة الرومانية على التجارة إلى الإضرار بمصالح جميع دول البحر المتوسط غير العربية ، مثل البندقية ونابلى وجنوه والجزر . وهذه الرقابة التجارية تفسر الصراع العنيف الطويل بين شرلمان والدولة الزومانية حتى عام ٨١٢ م . وفى أول الأمر تردد شرلمان فى مجاراة سياسة أبنيه ، وهى التدخل فى شئون إيطاليا ، ولذا نراه لا يعبر الألب قبل سنة ٧٧٤ م ، ولكنه أخذ يدرك تدريجياً — ولا سيما أواخر حكمه — الأهمية الاقتصادية للتجارة بالنسبة لإمبراطوريته . وعلى هذا فلم يكن تأييده للبابوية العامل الوحيد فى تشكيل سياسته فى إيطاليا ، وفى موقف العداء الذى وقفه من القسطنطينية ، ولكنه رأى أيضاً ضرورة الإشراف على منابع الثروة التى يمكن أن تتدفق من البحر المتوسط على الشواطئ التابعة له كما أنه رأى أيضاً كيف

تسيطر بيزنطة على التجارة ، وحاول أن يحطم تلك السيطرة .

وما بناء شرلمان لأسطول فى البحر المتوسط ومدّ نفوذه فى جزر البليار وسردينية وجنوب إيطاليا ، ومحاولاته السيطرة على البندقية وايستريا ودالماشيا ، إلا جزء من خطة مدبرة تستهدف السيطرة على مصادر الثروة التجارية التى حرمت منها بلاده . وإلى هذا هدفت كل مباحثات شرلمان مع مبعوثى بطريق صقلية ، نائب الإمبراطور البيزنطى فى الغرب ، وكذلك خطبته للإمبراطورة إيرين ، ومفاوضاته مع الخلفاء العباسيين ، بل إن اتخاذه لقب إمبراطور عام ٨٠٠ يمكن أن نعتبره خطوة نحو ذلك الهدف ذاته .

كما أدت الرقابة الرومانية التجارية إلى تغيير الوسطاء الذين كانوا يقومون بالتبادل التجارى بين الشرق والغرب . وعلى الرغم من نشاط بعض التجار الوطنيين فى إيطاليا وشمال أفريقية ، فإن التجارة بين الشرق والغرب ظلت حتى عام ٧١٦ م فى يد السوريين والمصريين واليونانيين واليهود ، واستقر التجار المشارقة، جلاّبو البضائع الشرقية ، فى مستعمرات لهم فى الغرب ومنه كانوا يرسلون السفن إلى الشرق محملة بالبضائع الغربية.

ومن نتائج الرقابة التجارية الرومانية ، انتقال التجارة من أيدى الرومان إلى غيرهم ، ومنها أيضاً تدهور الأساطيل الحربية الرومانية فى بحر إيجة و (كبرهايوت) ، إذ كانت تلك الأساطيل تعتمد على من تجمعهم بالقوة من ملاّحى السفن

التجارية . وهذا هو الذى يفسّر ضعف الرومان البحرى فى أوائل القرن التاسع الميلادى . أى إن ذلك الضعف يرجع إلى الرقابة التجارية أكثر مما يرجع إلى إهمال فعلى من جانب الحكومة الرومانية لشئون الأسطول .

انتهى نظام الرقابة التجارية إلى نوع من السلبيّة الاقتصادية داخل الدولة الرومانية ، وإلى ضعف بحرى صار من العسير إصلاحه ما لم تلجأ الدولة الرومانية إلى تغيير شامل فى أساليبها الاقتصادية والحربية والبحرية ، ومضت الدولة الرومانية فى طريق الركود الاقتصادى حقيقة كانت الدولة الرومانية لا تزال غنية ، ولا تزال قوية ، ولكنها لم تستطع أن تحافظ المحافظة الواجبة على نظام الرقابة على تجارة البحر المتوسط الذى أقامه ضد أعدائها[1] .

الأسطول العربى المصرى فى العصر العباسى :

اشتهرت مصر بصناعة السفن التى كان يحتاج إليها أسطول الخلافة ولعل أكبر صناعات الإسكندرية كانت صناعة بناء السفن .

تحدث (سيبيوس)[2] عن السفن المصنوعة فى مصر ، فذكر أنها كانت على نوعين ، أحدهما يمكن أن نسميه (البوارج) والآخر (الطرادات) . وكانت البوارج تحمل ألف رجل ، فى حين أن السفن الصغرى كانت تحمل كل منها مائة رجل ،

(١) لويس ص ١٨٧ .
(٢) المعارف البحرية ص ٤٥ .

وكانت تخصص للسير السريع واللف حول السفن الكبرى ، ويذكر ذلك المؤرخ وصفاً مهماً عظيم القيمة لما كان فى سفن الحرب من الآلات والسلاح ، فكانت بها عدد القذف « مجانيق وآلات رمى الحجارة » . وكان فى بعضها صروح عالية فوق ظهرها حتى إذا ما جاءت السفينة بمحاذاة أسوار محصنة استطاع المهاجمون أن يكونوا هم والمدافعون على علو سواء ، وأمكنهم أن يثبوا من تلك الصروح إلى الأسوار أو أن يقيموا قنطرة على الفضاء القليل الذى بينها ويعبروا عليها إلى حصون الأسوار .

وصف (سيبيوس) ما شهده من تلك السفن الكبرى ، فذكر أنها كانت مجهزة بآلات تقذف النار ، وهى آلات ترمى بالنار المهلكة المعروفة بالنار الإغريقية ، وكانت مزيجاً قوياً من مواد سريعة الالتهاب وكانت تشتعل اشتعالا شديداً لا يمكن إطفاؤه ، ولعلها كانت فوق ذلك ذات قوة على النسف والتمزيق ، وكانت لذلك تحدث تخريباً كبيراً وخوفاً شديداً .

ومما يسترعى النظر فى كتاب (سيبيوس) ما ذكره من أن السفن التى بنيت فى مصر بأمر الدولة العربية كانت مجهزة بالمجانيق لقذف المواد الملتهبة ، وهى المواد التى قيل إن تجهيزها كان فى القرن السابع على الأقل سراً مكنوناً اختص به أهل بيزنطة . وقد جرت العادة أن يقولوا إن أول من اخترع النار الإغريقية رجل اسمه (قلينيكوس) وهو مهندس من مدينة

(هليوبوليس) ، ويقولون فى تسرّع إن (هليوبوليس) المقصودة هى التى بالشام وليست هى المدينة القديمة الشهيرة بمصر .

أما المؤرخ (جبون) فانه يعتمد على ما جاء فى كتاب (قلدرينوس) ويقول إن (فلينيكوس) كان مصرياً ولكنه يزعم خطأً أن (هليوبوليس) كانت عند ذلك أطلالا بالية . وإننا لا يمكن أن نتصور أنه كان من الممكن أن تبنى سفينة فى الإسكندرية بعد فتح العرب لمصر بما لا يزيد إلا قليلا على عشرين سنة ، ثم إن تجهز بتلك الآلات التى تقذف النار الإغريقية اللهم إلا إذا كان اختراع مزيج تلك النار وعلى آلاتها أصله فى مصر ذاتها .

ومهما كان من أمر هذه النار فإنه لاشك فى أن صناعة بناء السفن كانت عظيمة فى الإسكندرية فى النصف الأول من القرن السابع ، وأنها لم تضمحل عند ما انتهى أمر الدولة الرومانية فى مصر وفى هذا ما يدل على أن الصانع المصرى كان فى هذه الصناعة كما فى غيرها من الصناعات الكبرى فى وادى النيل مستقلا بنفسه بغير إرشاد ولا تسيير من الروم إذا لم نقل إنه كان فى الحقيقة الصانع المعلم .

وكانت المنارة «منارة فاروس» إحدى عجائب الدنيا السبع لا تزال إلى ذلك الوقت ماثلة مشرقة فيما بين مدينة الإسكندرية والبحر تكلل هامتها سحب من الدخان فى النهار ، ولهب من النيران بالليل[1] .

---

(١) المعارف البحرية ص ٤٦ .

كانت صناعة السفن فى مصر مزدهرة فى العصر العباسى فيذكر المؤرخ (المقريزى)[١] أنه بعد أن نزل الروم دمياط فى سنة ٢٣٨ هـ فى خلافة المتوكل وفى ولاية عنبسة بن إسحق على مصر « وقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول وأنشئت الشوانى برسم الأسطول وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هى لغزاة البر ، وانتدب الأمراء له الرماة ، فاجتهد الناس فى تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو ، وكان لا ينزل فى رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب هذا وللناس إذ ذاك رغبة فى جهاد أعداء الله وإقامة دينه ، ولا جرم أنه كان لخدام الأسطول حرمة ومكانة ، ولكل واحد من الناس رغبة فى أن يعد من جملتهم فيسعى بالوسائل حتى يستقر فيه . وكان غزو الأسطول بلاد العدو ما شحنت به كتب التواريخ ، فكانت الحرب بين المسلمين والروم سجالا ينال المسلمون من العدو وينال العدو منهم ويأسر بعضهم بعضاً لكثرة هجوم أساطيل الإسلام على بلاد العدو فإنها كانت تسير من مصر والشام ومن أفريقية » . ويذكر المقريزى أيضاً أن الخدمة فى الأسطول كانت شرفاً عظيما يتمناه كل امرئ فى مصر .

---

(١) خطط المقريزى .

السيادة البحرية الحربية فى العصر العبادى الثانى :

كان استيلاء العرب على صقلية ثم كريت سنة ٨٢٧ فاتحة عهد جديد فى البحر المتوسط ، إذ أخذت السيطرة على البحر المتوسط تنتقل إلى العرب الذين انتشروا على الشواطئ الجنوبية لذلك البحر ، من جبال طوروس حتى جبال البرانس وكافح الرومان طويلا ، واستطاعوا أن يؤخروا إتمام فتح الأغالبة لجزيرة صقلية حتى عام ٩٠٢ ، وتمكنوا من أن يجمعوا من الأساطيل لحفظ نفوذهم فى جنوب إيطاليا والبحر الأدرياتى وحاولوا استرداد كريت دون جدوى ، ولم يأت القرن العاشر إلا وانتقلت السيادة العاملة فى البحر المتوسط لأعدائهم العرب.

كان أبلغ الحملات أثراً على مصير سيادة الرومان الحربية تلك التى قامت بها أساطيل شمال أفريقية فى بحار صقلية وإيطاليا ، وتلك التى قامت بها أساطيل كريت الإسلامية فى بحر الأرخبيل والبحر اليونانى .

بدأ الهجوم فى الغرب بإنزال قوة من المغاربة على شاطئ صقلية الجنوبى عام ٨٢٧ م ، ثم حاصروا العاصمة سرقوسة ، براً وبحراً . وحاول الرومان رفع الحصار دون جدوى ، فاستنجدوا بأسطول البندقية وتوسكانيا . وقدمت قوات عربية أندلسية لمساعدة المغاربة . وسقطت المدينة فى أيدى الأغالبة سنة ٨٣١ .

أدى استيلاء أسطول الأغالبة على جزيرة قوصرة سنة ٨٣٥ إلى القضاء على الخطر الذى كان يهدد المواصلات بين كل من صقلية وأفريقية كما أقبلت بعض مدن إيطاليا مثل نابلى على التحالف مع العرب فى صقلية .

بدأ العرب المسلمون هجومهم على المراكز البيزنطية فى كل من البحرين الأيونى والأدرياتى . وبدأت الهجمات بالاستيلاء على برنديزى عام ٨٣٨ بأسطول من مسلمى كريت أوشمال أفريقية أو منهما معاً . وقام من البندقية أسطول مكون من ستين قطعة حربية للدفاع عن ذلك الإقليم ، ولكن عانى أهوالا شداداً قرب كروتونى على خليج طارنت حيث حطمه المسلمون تماماً ثم صارت الأحوال المحلية فى جنوب إيطاليا مدعاة لتدخل أيسر شأناً ، وذلك حين قام صراع بين رجلين متنافسين يطالب كل منهما بالسيطرة على دوقية (بنثغنتم) اللمباردية . وفى عام ٨٤١ م استعان أحدهما ، وهو (رادليكس) بجنود غرب أفريقية وصقلية ، بينما استعان المنافس الآخر (سيكينواوف) بجند من عرب الأندلس . ونجح (رادليكس) فى الاستيلاء على مدينة (بارى) والأراضى المحيطة بها ، وتكونت دولة عربية إسلامية أكثر من ثلاثين سنة ، واعترفت بغداد بها .

كان من نتائج انهزام البندقية ، وتأسيس حكومة عربية إسلامية فى بارى ، واستيلاء عرب كريت على (طارنت) أن تعرّض البحر الأدرياتى لغارات الأساطيل العربية ، ثم استولى

العرب المسلمون على جزيرة (كرسو) واستولوا على معظم سفن البندقية التجارية، ثم هزموا أسطولها البحرى فى خليج (كوارنيرو) وأنزل العرب قواتهم فى أراضى البابوية سنة ٨٤٦ وأغاروا على ضواحى روما. وطلب البابا العون البحرى من مدن (كمبانيا) ولولا أن عاصفة شديدة أغرقت كثيراً من السفن العربية لزاد توسعهم فى الأراضى الإيطالية.

وفى عام ٨٥٨ التقى الأسطول الرومانى بالأسطول العربى تجاه الساحل الشمالى لصقلية وكانت النتيجة انتصاراً عظيما للمسلمين، وفقد البيزنطيون مائة سفينة وفقد الرومان معظم مدن صقلية، وأصبح العرب يسيطرون على أكثر من ثلثى الجزيرة. وبعد سنوات ثمان بدأ العرب يسيطرون على باقى الجزيرة. وحاول لويس الثانى الكارولنجى بتأييد البابا إجلاء العرب عن (بارى) دون جدوى. ولم يمنع تقدم العرب سوى تحالف البندقية والقسطنطينية عام ٨٦٧ م على أن يعملوا معاً فى البحار الإيطالية، وانتزعوا بارى من العرب، ولكن الأسطول العربى أغار على البندقية سنة ٨٧٥ وأحرق ميناء (كوماتشو) على مصب نهر إليبو.

فى عام ٩٠٢ م قاد إبراهيم بن الأغلب حملة برية وبحرية كبيرة من بلرم ضد المواقع المملوكة للرومان فى صقلية فسقطت المنطقة كلها فى أيدى العرب، ولكن وفاة ابن الأغلب الفجائية منعت العرب من التقدم، فقد نشب النزاع بين الأغالبة

والفاطميين وإن كانت صقلية قد خضعت تماماً للعرب المسلمين.

ترجع أسباب ضعف الدولة الرومانية البحرى فى مياه إيطاليا وصقلية فى ذلك الحين ، إلى ما واجهه البيزنطيون فى الشرق من مشاكل ، وعلى الأخص فى مياه بحر إيجة المجاور لجزيرة كريت . إذ وجدت القسطنطينية أنه من العسير عليها أن تحارب أعداءها فى بحر إيجة وفى المياه القريبة فى وقت واحد[1] .

فى النصف الثانى من القرن التاسع شاهد البحر المتوسط قيام قوة بحرية عربية أكثر استقراراً ، وعلى الأخص عند حدود طرسوس . ويبدو أن تلك القوات كانت تحت إمرة الأمير العربى الذى عهد إليه فى نفس الوقت قيادة قوات الحدود البرية ، المستخدمة ضدّ الرومان ، وكان لهذا الأسطول العربى، الذى دُعِّم بفرق مصرية وسوريّة من القوة ما مكنه من الهجوم بغارة على القاعدة البحرية الرومانية الأناضولية فى أضالية عام ٨٦٠ م ، ورافق ذلك الهجوم هجوم عباسى آخر من البرّ على بلاد آسيا الصغرى ، ثم أغار أسطول سورى طرسوسى على جزيرة أيوبيا فى بحر إيجة عام ٨٧٣ وساعدته فرق كريتيّة .

كانت جزيرة قبرص نقطة تجمع الحملات الشامية المصرية على الأراضى البيزنطية ، وبلغت تكاليف إحدى الحملات

---

(١) لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٢٢٢ .

١٠٠,٠٠٠ دينار . ومن الأمور الهامة التى تتعلق بالأسطول العربى فى ذلك الحين ، تجهيزها بالنار الإغريقية أو بمركب نفطى مشابه للنار الإغريقية ، فالحراقات التى استخدمها الأغالبة قرب صقلية عام ٨٣٥ م كانت سفناً من قاذفات اللهب ، تقذف مادة سريعة الاشتعال على سفن الأعداء . واستخدم ليو الطرابلسى قاذفات اللهب فى هجومه على سالونيك عام ٩٠٤ م وبهذا السلاح أحرق الفاطميون السفن التى هاجموها فى البحر التيرانى عام ٩٣٥ . وإذن فلم تعد النار الإغريقية وقفاً على بيزنطة ، ولم تعد سلاحاً سرياً مخيفاً كما كانت فيما مضى وربما يوضح لنا هذا كله عجز البحرية الرومانية وافتقارها إلى النجاح المنشود معظم تلك الفترة . والواقع أنه كان من المستحيل على البيزنطيين الاحتفاظ بسيطرتهم على البحار ما لم تكن لهم وحدهم ميزة استخدام النار الإغريقية . ذلك لأن ما لديهم من أسلحة وما هم عليه من تنظيم لم يرتق عما كان عند منافسيهم المسلمين إلا قليلا جداً ، إن صح أنه كان أرقى .

جاء فى كتاب (الخطط الحربية Tactica) الذى وضعه ليو ، أن أساطيل بيزنطية كانوا يدربونها على تجنيب ملاقاة العدو إلا فى حالات الضرورة القصوى ، وأنها كانت تعتبر عضواً للقوات البرية لا سلاحاً قائماً بذاته . وهذا المسلك الدفاعى المملوء بالحذر ، والذى سيطر على قواد بحرية

القسطنطينية ، وربما يوضح أكثر من أى شىء آخر ، المظهر الهزيل الذى ظهرت الدولة الرومانية به فى البحار معظم تلك الفترة[١].

السيادة العربية التجارية فى العصر العباسى الثانى :

توزعت الملاحة البحرية فى الدولة العربية الإسلامية فى بحرين منفصلين تماماً وهما : البحر المتوسط ، والمحيط الهندى ، وذلك لأن برزخ السويس كان حائلا دون اتصال هذين البحرين فكان من يريد أن يصل من البحر المتوسط إلى الهند أو شرق آسيا مضطراً إلى حمل بضائعه على الظهر عند الفرما ، ثم يسير فى الصحراء سبع مراحل حتى يصل إلى القلزم وهناك يستطيع حملها فى المراكب مرة أخرى .

اختلف نوع السفن التى تستعمل فى كل من البحرين ، فكانت نوع سفن البحر المتوسط ذات مسامير ، أما سفن البحر الأحمر والمحيط الهندى فكانت تخاط بحبال الليف[٢] . وكانت هذه هى الطريقة القديمة فى إنشاء السفن عند جميع الأمم . ويذكر ابن جبير فى القرن السادس الهجرى طريقة إنشاء السفن على هذا النحو ، فيقول إن سفن البحر الأحمر لا يستعمل فيها مسمار البتة « إنما هى مخيطة بأمراس من القنبار وهو قشر جوز النارجيل ، يدرسونه حتى يتخيط ، ويفتلون

(١) لويس ص ٢٤٥ .

(٢) خطط المقريزى ج ١ ص ٢١٣ .

منه أمراساً ، يخيطون بها المراكب ، ويخللونها بدُسر من عيدان النخل ، فإذا فرغوا من إنشاء المركب على هذه الصنعة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش ، وهو أحسنها ، وهذا القرش حوت عظيم فى البحر »[١] . ويعلل المؤرخ المسعودى[٢] عدم استعمال المسامير فى بناء السفن بالخوف من أن يأكلها ماء البحر بينما يذكر القزوينى[٣] أن الملاحين كانوا يخافون من جبال المغناطيس .

كانت سفن البحر المتوسط أكبر من سفن المحيط الهندى ، فقد روى مفتش الضرائب (تشاو — جو — كوا Cau-Ju-Kua) فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى (القرن السابع الهجرى) ، مع كثير من التعجب ، كيف أن سفينة واحدة تحمل بضعة آلاف من الرجال ، وعلى ظهرها حوانيت لبيع الطعام وفيها مغازل ولم تكن السفن ذات الدفتين موجودة فى غير البحر المتوسط أما التى تجرى فى المحيط فلم يكن فيها أكثر من طبقة واحدة ، وكانت فى معظم الأحيان ذات سارية واحدة . وكانت أغلى أصناف الخشب الذى تصنع منه المراكب هو شجر اللبخ وكان اللوح الواحد يباع بخمسين ديناراً . وكانت البندقية فى القرن الرابع تمد العرب بالخشب لبناء السفن مما جعل الإمبراطور

(١) رحلة ابن جبير ص ٦٧ .

(٢) مروج الذهب حـ ١ ص ٣٦٥ .

(٣) عجائب المخلوقات حـ ١ ص ١٧٢ .

البيزنطى يحتج لدى دوق البندقية ، فأمر الدوق بإيقاف بيع الخشب للعرب ، ولم يسمح إلا بإمدادهم بالخشب الذى لا يصلح لإنشاء السفن ، ولهذا شرطه أن يكون من اللبخ أو السنديان ، على ألا يتجاوز طول اللوح خمسة أقدام وعرضه نصف القدم .

وصف المؤرخ اليعقوبى [1] ميناء طرابلس الشام فى أواخر القرن الثالث الهجرى بأنه « عجيب يحتمل ألف مركب » ، كما تحدث عن ميناء صور فقال إنه « كان بها دار الصناعة ، ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم ، وكانت حصينة جليلة » . وكانت تونس تلى طرابلس فى الأهمية ، وكانت مدينة القيروان على مقربة من موقع قرطاجنة التى كانت سيدة البحر قديماً .

كانت للعالم العربى الإسلامى فى تلك الفترة ثلاثة مراكز لثلاث قوات عربية إسلامية بحرية متميزة حوض البحر المتوسط : الأولى فى الغرب ، والثانية فى الوسط ، والثالثة فى الشرق : وأغلب الظن أن أهم هذه القوى الثلاث هى القوة المتوسطة التى ربطت صقلية بشمال أفريقية تحت حكم الأغالبة حتى عام ٩٠٩ م ، والتى انتقل الأشراف عليها إلى الفاطميين بعدهم ، إلى جانب الموانئ التى استولى العرب عليها ، مثل بارى وجاريليانو . وإلى غرب تلك القوة وجدت القوة البحرية

---

(١) كتاب البلدان ص ٣٢٧ .

الأموية فى الأندلس. وتكوّنت فى القرن التاسع من أسطول مرابط فى الثغور بقيادة أمير مرقسطة وفراكسينت ، ثم اتسعت دائرة سلطان هذه القوة فى القرن العاشر ، واشتملت على أسطول ممتاز حسن التنظيم ، خضعت لسلطانه مجموعة من جزر البليار . أما القوة الشرقية فكان نطاقها أكثر تلك القوى اتساعاً وأقلها تحديداً . وكانت تتكون من كريت المستقلة ومن أساطيل طرسوس وأساطيل الشام ومصر . وقد توحّدت هذه الإساطيل الثلاثة مرتين تحت حكم الطولونيين وتحت حكم الإخشيديين وكانت كريت وثيقة الصلة بمصر دائماً . وكثيراً ما كان يحدث ألا تكون تلك الأساطيل متّحدة ، وقد تعمل كل منها على انفراد .

كان لسيطرة العرب البحرية نتائج خطيرة على الحياة الاقتصادية والتجارية ، فى كل أقاليم البحرين المتوسط والأسود وربما كان أول المستفيدين من هذا التحول بل أكثرهم استفادة فى القرن التاسع الميلادى — من وجهة النظر الاقتصادية — هم سكان صقلية وسكان شمال أفريقية بصفة خاصة . ونتج عن سيطرة العرب على البحر المتوسط ، وبخاصة على طريق التجارة الدائرية فى الشمال ، الواصلة بين سورية ومصر عن طريق صقلية وكريت وقبرص، زيادة أهمية الدور الذى قام به سكان شمال أفريقية كوسطاء فى تجارة ذلك البحر . وهكذا تحكم الأفريقيون فى نقل التجارة بين الشرق والغرب ، وكانت

سفنهم دائبة الحركة إلى سورية ومصر لجلب التوابل والمنتجات الفاخرة من بلاد الشرقين الأدنى والأقصى إلى شمال أفريقية وسائر بلاد العرب والإسلام فى الغرب .

عمّ الرخاء البلاد العربية والإسلامية بفضل سيطرة العرب على البحر المتوسط فقد غدت تونس ، أواخر حكم الأغالبة ، بلداً زراعيًّا غنيًّا ، اكتست أقاليمه الجنوبية بأشجار الزيتون والكروم ، وفاقت سهوله الوسطى بالحبوب الوفيرة ، إلى جانب الصناعات ، مثل خامات المعادن فى قاعدة سوسة البحرية ، وصناعة الزجاج والخزف والنسيج فى القيروان . وكانت القيروان أعظم المراكز التجارية أهمية حيث صدر منها القمح إلى الإسكندرية ، وزيت الزيتون إلى صقلية وإيطاليا كما كانت تونس مركزاً تجاريًّا هامًّا إلى جانب قابس وصفاقس ، كما انتشر الرخاء فى مصر وأصبحت طريقاً للتجارة الدولية بين المنسوجات وامتد الرخاء إلى سوريا وفلسطين ، فانتعشت طرابلس وبيروت وصور وسائر الموانى الساحلية الأخرى بسبب إعادة فتح البحر أمام التجارة العربية . وعاد التجار السوريون إلى البحر المتوسط ثانية . ووصل الرخاء التجارى والصناعى إلى حلب ودمشق وبيت المقدس ، فى عام ٩٠٨ م بلغ دخل سوريا ٣٨ مليون درهم (أى حوالى ٢ مليون دينار) بعد المصروفات العامة .

انتشر الدينار الذهبى شرقاً وغرباً وصارت بلاد العالم

العربى من المحيط الأطلسى غرباً إلى جزر الهند الشرقية شرقاً مرتبطة تجارياً داخل وحدة اقتصادية واحدة . فحوالى عام ٨٠٠م كان الدينار الذهبى لا يستخدم إلا فى شمال أفريقية وسورية ومصر وبعض أجزاء من إيطاليا ، ولكنه غدا حوالى عام ٩٥٠ م نقداً دولياً دون منازع ، واستخدم فى سائر بلاد العالم العربى ، وفى أوائل القرن العاشر سك عبد الرحمن الناصر ديناراً أندلسياً وانتشر الدينار الذهبى فى الشرق ، فاختفى الدرهم الفضى من العراق وإيران .

لم يكن لسيطرة العرب على البحر المتوسط أثر اقتصادى ضار بالأقاليم الرومانية فى الشمال [١] ولم تحاول الشعوب العربية عرقلة أو التحكم فى التجارة الذاهبة إلى الإمبراطورية الرومانية أو الخارجة منها حقيقة أن غارات العرب اندفعت بانتظام صوب الشواطئ الرومانية فى الشرق والغرب ، وانتزعت كريت وصقلية من أيدى حكام القسطنطينية ، ولكن فترات السلام الطويلة بين تلك الغارات سمحت بكثير من النشاط التجارى بين الطرفين . بدليل أن الإمبراطورية الرومانية لم تعان أى تدهور اقتصادى خلال تلك المدة .

عدّل أباطرة الروم أساليب الرقابة الموجهة ضدّ التجار المسلمين فى حوض البحر المتوسط إلى القسطنطينية . بل إن وكالتين أقيمتا بالقسطنطينية ، إحداهما لتجار الحرير الفاخر ، والأخرى لتجار التوابل والعطور ، ويرجع الفضل فى وجودهما

---

(١) لويس : القوى البحرية والتجارية ص ٢٦٤ .

إلى التجارة العربية قبل غيرها .

أحدثت سيطرة العرب على حوض البحر المتوسط (٨٢٧ — ٩٦٠) الكثير من التغييرات الاقتصادية فى تجارة ذلك البحر ، وشاهدت انتعاش كثير من طرق التجارة القديمة التى تدهورت زمن سيادة البحرية الرومانية ، وتحدد هذه السنوات كذلك ظهور شمال أفريقية وإسبانيا وصقلية باعتبارها مناطق صناعية هامة ، أخذت تنقب فى مناجمها وترقى بصناعتها وزراعاتها ، وتسيطر على تجارة البحر المتوسط القاصدة إلى الشرق ، والعابرة لطرق الصحراء إلى السودان ، وشاهدت هذه السنوات ذاتها عودة الرخاء إلى سورية ومصر وعودة التجارة إلى البحر الأحمر . يُضاف إلى هذا أن العالم الإسلامى بأسره ، أصاب فى هذه المرحلة تقدماً كبيراً ، من حيث اندماجه فى وحدة اقتصادية واحدة وقيامه على التعامل بنقد ذهبى شائع ، مقبول للتعامل ما بين بلاد فارس والأندلس.. ويعد هذا العصر من عصور الحيوية العارمة فى تاريخ البحر المتوسط . إذ تبدل النظام الاقتصادى القديم وتحولت الأقاليم العربية فى الغرب إلى بلاد صناعية مع سيطرتها بالاشتراك مع المدن الإيطالية ، على نقل التجارة فى البحر المتوسط . وكان هذا كله ، الخطوة الأولى نحو سيطرة الغرب وتسلطه على هذا الإقليم . وكانت هذه بداية لها ما بعدها ، بداية عصر ينتقل فيه التحكم فى شئون البحر المتوسط إلى أوربا الغربية .

٤ ـ مصر العربية الإسلامية سيدة البحر المتوسط

فى العصر الطولونى والأخشيدى :

أنشأ أحمد بن طولون (٢٥٤ ـ ٢٧٠ هـ) جيشاً ضخماً ، فكان أول جيش مستقل فى مصر فى العصور الوسطى . وبلغ جيش ابن طولون من القوة والكثرة مما جعل الخلافة العباسية تعترف بسلطة ابن طولون ، فقد زادعدد الجند على مائة ألف [١]

واهتم ابن طولون أيضاً بالأسطول الحربى ، وجعل للسفن الحربية أحواضاً حول الروضة كانت تعرف باسم (صناعة الجزيرة) وزاد اهتمام ابن طولون بالأسطول بعد توسعه فى بلاد الشام ، واضطراره إلى حماية شواطئه ومواجهة الهجوم البيزنطى ، ثم زادت عناية ابن طولون بالأسطول بعد محاولات الموفق ، أخى الخليفة العباسى للقضاء عليه ، وتفكيره فى غزو مصر بحراً ، ولهذا دعم الأسطول بكثير من السفن [٢] .

تحدث المقريزى [٣] . عن أسطول ابن طولون فوصفه بقوله : « وبنى ـ ابن طولون ـ أسطولا يتألف من مائة مركب بحرية ،

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٣٥ .

(٢) حسن محمود : مصر فى عصر الطولونيين ص ٢٧ .

(٣) الخطط جـ ١ ص ٣١٨ .

سوى ما يضاف إليها من العلابيات والحمائم والعشارات والسنابيك والزوارق وقوارب الخدمة» . أما البلوى [1] فقد وصف أسطول ابن طولون فذكر أنه ضم مائة مركب كباراً ، ومائة مركب حربية .

لمّا تولى الإخشيد إمارة مصر دخل البلاد ومعه أسطول ، ودخل هذا الأسطول ثغر دمياط وسارت سفنه فى النيل بعد أن هزمت السفن المصرية فى شعبان سنة ٣٢٣ ﻫ . واهتم الإخشيد بالجيش والأسطول ، فبلغ عدد جند جيشه ثمانية آلاف كما اهتم ببناء السفن ، ونقل دار الصناعة إلى الفسطاط وأطلق عليها اسم دار صناعة السفن .

الدولة الفاطمية سيدة البحر المتوسط :

اهتم الفاطميون بإنشاء أسطول قوى ، بعد تهديد البيزنطيين لبلاد الشام واستيلائهم على أنطاكية وحلب . فأنشأ المعز لدين الله الفاطمى ومن جاء بعده من الخلفاء الفاطميين من السفن الحربية فى مدينة مصر (الفسطاط والعسكر) وفى الإسكندرية ودمياط وكانت بعض وحداتها تسير للمرابطة فى الموانى الشامية مثل عكا وصور وعسقلان وفى عيذاب على البحر الأحمر ، وأنشأ المعز داراً لصناعة السفن بالمقس بنى فيها ستمائة سفينة ،

---

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٧٨ .

وصفها المسيحى المؤرخ المصرى المتوفى سنة ٤٢٠ هـ بقوله : « إنه لم ير مثلها فيما تقدم كبراً وحسناً » .

قام الأسطول المصرى فى عصر الفاطميين بدور هام فى الحروب التى قامت بين القرامطة والفاطميين (٣٦٠ — ٣٦٧هـ)، فقد استطاع أسطول القرامطة أن يصل إلى مصر و يهدد دلتا النيل ، كما استطاع أسطول الفاطميين أن يمدّ الحاميات الفاطمية المحاصرة فى الشام .

كان على رأس الأسطول الفاطمى العربى عشرة قواد، عليهم رئيس يدعى قائد القواد أو أمير الأسطول ، وهؤلاء القواد كانوا يتناولون مرتبات تصل إلى العشرين ديناراً فى الشهر ، وأفرد للأسطول ميزانية ضخمة من خراج الإقطاعات المحبوسة عليها[1] واشتهرت الروضة والإسكندرية بصنع السفن الحربية والتجارية[2] .

تحدث ابن خلدون عما قام به الأسطول العربى من الأعمال المجيدة ضدّ الرومان البيزنطيين وسائر الشعوب الأوربية فى البحر المتوسط الذى أصبح بحق بحيرة عربية فقال : « وكانت أساطيل أفريقية والأندلس فى دولة العبيديين — أى الفاطميين — والأمويين تتعاقب إلى بلادهما فى سبيل الفتنة ، فتجوس خلال السواحل بالإفساد والتخريب . وانتهى أسطول

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٣ .

(٢) على ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٣٧٩ .

الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر إلى مائتى مركب أو نحوها ، وأسطول أفريقية — أى أسطول الفاطميين بالمغرب — كذلك مثله أو قريباً منه . وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه . فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم . . . وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم . وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه . . . والمسلمون خلال ذلك قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر ، وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة ، والعساكر الإسلامية تجير البحر فى الأساطيل، من صقلية إلى البرّ الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية ، فتوقع بملوك الإفرنج وتثخن فى ممالكهم ، كما وقع فى أيام بنى الحسين ملوك صقلية القائمين فيها بدعوة العبيديين ، وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالى الشرقى منه ، من سواحل الإفرنجة والصقالبة وجزائر الرومان لا يعدونها ، وأساطيل المسلمين قد ضريت عليهم ضراء الأسد على فريسته ، وقد ملأت الأكثر من بسيط هذا البحر عدة وعدداً ، واختلفت فى طرقه سلماً وحرباً ، فلم تظهر للنصرانية فيه ألواح » (مقدمه ابن خلدون ص ٢٢٠) .

كان الفاطميون يحتفلون بخروج الأسطول إلى الغزو احتفالا شائقاً يحضره الخليفة ، فيجلس فى منظرة معدة له على ساحل النيل بالمقس خارج القاهرة لوداع الأسطول ، فيجىء

القواد بالسفن إلى هناك ، وهى مزينة بأسلحتها وأعلامها ، وفيها المنجنيقات ، فتقوم السفن ببعض المناورات ثم يحضر الرئيس والمقدم بين يدى الخليفة الفاطمى فيودعهما ويدعو لهما ، ويعطى المقدم ١٠٠ دينار والرئيس ٢٠ ديناراً . ويحتفلون مثل هذا الاحتفال عند عودتهم من الغزو .

كان الرومان البيزنطيون قبل قيام الدولة الفاطمية فى مصر والشام ، قد حازوا بعض الانتصارات ، فقد انتزعوا جزيرة كريت سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) برغم جهاد العرب العنيف فى الدفاع عنها ، كما انتزعوا حلب من سيف الدولة الحمدانى سنة ٣٥١ هـ ، كما استولوا على أنطاكية ، ولكن قيام الدولة الفاطمية كان بمثابة وضع حد لهذه الانتصارات الرومانية ، فقد بدأ الفاطميون باسترداد حلب وأنطاكية ، لتظهر الدولة الفاطمية بمظهر حامية العروبة والإسلام من دون الخلافة العباسية فى العراق .

أمر الخليفة الفاطمى العزيز ببناء أسطول حربى ضخم فى دار صناعة جديدة بالمقس عام ٩٩٥ م . وكان المشروع يرمى إلى بناء ستمائة سفينة جديدة بعضها كبير الحجم إلى درجة كبيرة[١] . ويصف (ناصرى خسرو) الرحال الفارسى إحدى سفن الخليفة المعز وكانت قد أخرجت إلى الشاطئ وقت

---

(١) Lane-Poo e : Egyptx p. 112

فتح مصر عام ٩٦٩ بأنها تبلغ ٢٧٥ قدماً طولا ، و ١٠ أقدام عرضاً .

بعث الرومان البيزنطيون أسطولهم لمهاجمة الشام ، فهاجموا طرابلس وحمص وبعلبك ، لكن الأسطول الفاطمى قضى على هذه المحاولات ، ثم اتفق الطرفان على عقد صلح بينهما لمدة عشر سنوات . وفى هذا الصلح احتفظ الرومان بما تحت أيديهم من الأراضي السورية ، أما الشواطئ فتبقى فى قبضة الفاطميين وهكذا أجبر البيزنطيون على اقتسام السيطرة على مياه شرق البحر المتوسط مع البحرية المصرية القوية .

نقض البيزنطيون الصلح وعاودوا غاراتهم على سورية . ورد العرب بالهجوم سنة ١٠٣٢ م على شواطئ اليونان وجزرها وفى عهد الخليفة الفاطمى الحاكم عقدت معاهدة مع الرومان كفلت حسن العلاقات . ولما تولى الخليفة الظاهر الفاطمى سنة ٤١١ ه (١٠٢٠ م) استمرت العلاقات الودية بين الدولتين ، وعقدت بين الظاهر والإمبراطور البيزنطى اتفاقية سنة ٤١٨ ه (١٠٢٧ م) نصت على أن يخطب باسم الخليفة الفاطمى فى مسجد القسطنطينية ، ويعاد بناء هذا المسجد مقابل إعادة بناء كنيسة القيامة ببيت المقدس التى كان الحاكم الخليفة الفاطمى قد هدمها .

ظلت العلاقات ودية بين الفاطميين والبيزنطيين إلى أن قامت الحروب الصليبية وأصبحت مملكة بيت المقدس تواجه

الأخطار من جرّاء ازدياد نفوذ نور الدين ببلاد الشام وطموحه إلى بسط سلطانه على مصر . فبعث أمورى ملك بيت المقدس يستنجد بملوك أوربا لوقف الخطر الذى يهدد الإمارات اللاتينية بالشام ، غير أنهم شغلوا عنه ، لذلك لم يجد بدّاً من الا ستعانة بالإمبراطور البيزنطى مانويل . وكان هذا الإمبراطور يؤيد (أمورى) فى تخوفه من توسع نور الدين ، فاتفق معه على السير بحراً إلى مصر ، وأنفذ إليه أسطولا يعاونه حملة من الفرسان والمشاة ، مزودة بالمؤن والآلات الحربية ونزلت هذه القوات على دمياط ، وأحاطت بها براً وبحراً سنة ٥٦٥هـ(١١٦٩ م)[١] لكنها اضطرت للجلاء بعد أن بلغها شروع نور الدين فى الإغارة على بعض بلاد الإمارات اللاتينية بالشام سنة ١١٧٠ م، وبذلك عجزت الحملة الصليبية التى عاونها البيزنطيون عن تحقيق أطماعها فى مصر .

تحدث المؤرخ الأمريكى المعاصر (أرشيبالدر. لويس)[٢] عن الموقف فى البحر المتوسط فى تلك الفترة فقال : يجب التسليم بأن البحر المتوسط بقى إلى حد كبير بحيرة عربية إسلامية حتى عام ١٠٤٣ ، برغم ما أصاب القوى العربية الإسلامية من ضعف وإن الأسطول المصرى زمن الفاطميين وغارات المسلمين الهجومية من صقلية وشمال أفريقية على جنوب إيطاليا بل وعلى أقليم

---

(١) خطط المقريزى جـ ١ ص ٢١٥ .

(٢) القوى البحرية والتجارية ص ٣٢٤ .

بحر إيجة ، وكذا حركات أسطول مجاهد من قواعده بجزر البليار كل ذلك مكّن العرب المسلمين من قدر كبير من السيطرة على البحر المتوسط .

السيادة البحرية التجارية فى العصر الفاطمى :

لم يكن استيلاء الأغالبة على صقلية (٨٢٧ م) وظهورهم فى جنوب إيطاليا (٨٤٢ م) سبباً فى اضمحلال نشاط غرب أوربا التجارى ،إذ دأب عمال الأغالبة هناك على جعل الطريق مفتوحاً لاتصال دول غرب أوربا بحوض البحر المتوسط الشرقى فمن ذلك أن مدينة (بارى) الإيطالية بعد أنسقطت فى أيدى الأغالبة (٨٤٢) غدت الميناء الرئيسى الذى أبحرت منه السفن إلى مصر والشام تنقل إليها الصادرات الغربية وتعود منها محملة بالتجارة الشرقية . وحفظ لنا الحجاج المسيحيون صورة عن نشاط هذا الطريق التجارى وعن تسهيل المسلمين لهم مهمة السفر إلى الأراضى المقدسة بفلسطين ، وتعتبر رحلة برنارد الرشيد الذى أبحر من بارى سنة ٨٦٧ م قاصداً الأراضى المقدسة مصدراً هامـًا لمعرفة أحوال هذا الطريق ووسائل الانتقال عبره(١) .

حافظ الفاطميون فى مصر على استمرار إشراف الدولة على الحياة الاقتصادية وهذا الإشراف كان الطابع الملحوظ فى مصر

---

(١) العدوى ص ١٤٧ .

منذ عهد البطالمة من ذلك الاحتفاظ بنظام جوازات الانتقال والسفر ، والدقة فى جباية الضرائب ورقابة الأسواق حيث يجب أن تعرض جميع السلع ، وبحثوا عن الذهب فى النوبة يُضاف إلى هذا اهتمامهم بالشئون البحرية . كما عملوا على زيادة قوة مصر الحربية فى البحر ، فإنهم كانوا يملكون ويديرون جانباً كبيراً من أسطول مصر التجارى . الذى كان يرسل لأغراض التجارة عبر مياه البحر المتوسط . وربما حاولوا الخروج بمصر عن سياستها السلبية السابقة فى ميدان التجارة الخارجية .

وإلى جانب رخاء مصر فى العصر الفاطمى ، امتد الرخاء أيضاً إلى سورية وفلسطين الواقعتين تحت النفوذ الفاطمى . وتقدمت بهما الزراعة والصناعة . ونجحت تجارة الشام مع الشرق والجنوب . وازدهرت تجارة البحر المتوسط مع سورية ومصر ، وصارت للإسكندرية علاقات تجارية مع صقلية والقسطنطينية . وتردّد على مدينة طرابلس كثير من التجار الأجانب الوافدين من بيزنطة والأندلس وصقلية وبلاد غرب أوربا . وأبحرت من ذلك الميناء الأساطيل التجارية الخاصة بالخليفة الفاطمى فى القاهرة ، قاصدة القسطنطينية وصقلية وشمال أفريقية للتجارة معها . وكان أكثر تجار غرب أوربا نشاطاً فى تجارتهم مع الفاطميين ، هم البنادقة وأهل أمالفى . وقد أمدّ البنادقة الفاطميين بالحديد والسلاح وخشب السفن ، وهى المواد التى احتاجت إليها بلادهم كثيراً ، وحملت سفنهم

من مصر التوابل والمنسوجات وسائر المنتجات الفاخرة .

إن العمائر الكثيرة الرائعة التى أنشأها خلفاء الفاطميين فى مصر ، والثروة المذهلة التى احتوتها خزائن الخليفة الفاطمى المستنصر ، كل ذلك يوضح عظم الثروة التى تمتعت بها فى ذلك الحين . وغدت القيروان من أهم المدن التجارية فى البحر المتوسط إلى جانب عظم أهميتها من الناحية الصناعية . وقد وضعها (المقدسى) بين عواصم العالم العربى الإسلامى مع برقة وسجلماسة . وزادت أهمية تونس وصفاقس وسوسة وقابس كمراكز تجارية . وشاركت صقلية حين ذاك فيما يتمتع به شمال أفريقية من ثراء ورخاء . ويذكر (المقدسى) جزيرة صقلية بين أهم مراكز التجارة فى العالم الإسلامى [١] .

بلغ النشاط التجارى بين الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم أوجه إبان القرن العاشر الميلادى وغدا مألوفاً ارتياد التجار المسلمين والروم أراضى الدولتين والإقامة فى المدن الهامة بهما . ويدل تنظيم الأسواق فى الدولتين الإسلامية والرومانية ، والإشراف على نشاط التجار بها والقوانين التى وُضعت لها ، على ازدهار التبادل التجارى ، ومحاولة كل دولة أن ترعى مصالحها الاقتصادية .

شاركت الإمبراطورية الرومانية العالم الإسلامى فى رخائه فى هذا العصر مشاركة أكبر مما كان لها من قبل . ولا شك أن

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٤٧ .

هذا يرجع إلى توسعها فى الجنوب والشرق على حساب الإسلام . فنى ذلك الحين وقعت جزيرة كريت وقبرص فى قبضة الروم ، وبهذا عاد الروم إلى الموقف الذى يتيح لهم الأخذ بنصيب أوفر من أرباح الطريق الدائرية للتجارة العالمية بين سورية ومصر وبين الغرب ، وهى الطريق التى كانت تمر بهاتين الجزيرتين .

غدت مدينة حلب أحد المنافذ الرئيسية للتجارة الرومانية مع العالم العربى فى الشرق . وبلغ من أهميتها أن استثناها الإمبراطور باسيل الثانى من قرار تحريم الاتجار مع الخلافة الفاطمية فى مصر ، وقت اضطهادات الخليفة الحاكم للمسيحيين عام ١٠١٥ . وأصبحت حلب أهم قواعد التبادل التجارى مع فارس وبلاد الشرق بدلا من طرابيزون .

رجعت الدولة الرومانية أحياناً إلى سلبيتها الواضحة فى مجال التجارة الأجنبية ، فاستمرت فى الإشراف على التجارة الخارجية ، وحاولت منع الاتجار مع الفاطميين . ومع ذلك فلم ينقطع الاتجار مع العالم مدة طويلة ، وبقى بعض التجار البيزنطيين يترددون على موانى سورية ومصر ، ولكن أغلب التبادل التجارى كان يتم على يد التجار المسلمين ، فهم الذين كانوا ينقلون متاجرهم إلى القسطنطينية .

حرصت البندقية على استمرار علاقاتها التجارية مع الدول العربية الإسلامية المطلة على البحر المتوسط . فقد أرسل الدوق بطرس الثانى ، باعث نهضة البندقية أواخر القرن العاشر

مبعوثيه إلى جميع الأمراء العرب فى حوض البحر المتوسط ، وتاجرت البندقية مع مسلمى صقلية وشمال أفريقية ومصر وسورية.

السيادة السياسية الفاطمية فى البحر المتوسط :

قامت الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب ، أى فى الركن الجنوبى الغربى للبحر المتوسط ، ثم استطاعت أن تمدّ نفوذها على طول الساحل الأفريقى الشمالى ، وتوجت نصرها بفتح مصر وانتزاعها من الإخشيديين ، ثم بدأت الدولة الفاطمية فى سيطرتها على بلاد الشام لتملك الساحل الشرقى للبحر المتوسط كما ملكت الساحل الجنوبى لهذا البحر . وقاد جوهر الصقلى ، فاتح مصر ، جيشاً كبيراً زحف به إلى دمشق ، ثم قام الخليفة العزيز بحملة كبيرة شاركه فى قيادتها جوهر الصقلى ، ثم بدأ الصراع بين الفاطميين والصليبيين على بلاد الشام .

كانت العلاقات الطيبة التى استمر فترات طويلة من العصر الفاطمى بين الفاطميين والبيزنطيين سبباً فى سماح الأباطرة البيزنطيين بالخطبة للخليفة الفاطمى على منبر مسجد القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية وغيره من مساجد الدولة .

وامتد النفوذ الفاطمى السياسى إلى إيطاليا . فكانت مدينة (أمالفى) أول المدن الإيطالية التى حرصت على إنشاء علاقات طيبة مع الفاطميين فى مصر والشام ، وكانت هذه المدينة تستعين بالفنانين والصناع من أهالى الإسكندرية كما

حرصت مدينة (بيزا) على صداقة الدولة الفاطمية ، فأرسلت سنة ١١٥٤ م سفيراً إلى بلاط الخليفة الظافر الفاطمى وامتنعت عن مساعدة الصليبيين فى الشام . ولما تولى طلائع بن رزيك الوزارة أرسلت بيزا وفداً لتهنئته .

نمت علاقات المودة بين الدولة الفاطمية ومدينة (جنوه) فى النصف الأخير من القرن الحادى عشر الميلادى ، فعقدت معاهدة تجارية مع الحكومة الفاطمية عام ١٠٦٣ م ، وأعلن الخلفاء الفاطميون حمايتهم لتجار جنوه . وكان هؤلاء التجار يتوافدون على الإسكندرية لاستيراد بعض السلع مثل الشب والنطرون التى احتكرت الدولة الفاطمية بيعه للروم[١] .

اهتمت البندقية بصداقة الدولة الفاطمية ، فكانت فى القرن العاشر تمد الفاطميين بالأخشاب اللازمة لبناء الأسطول الفاطمى ، وشعرت الدولة البيزنطية بخطورة ذلك فضغطت على البندقية لتمتنع عن تصدير الأخشاب للفاطميين . ولكن البندقية رأت ألا تضحى بمصالحها الخاصة فى سبيل إرضاء الأباطرة البيزنطيين ، فأرسلت بعثات إلى مصر حصلت على امتيازات لسفنها ، كما أن تجارها عملوا على تنمية العلاقات التجارية مع المسلمين ، وصارت سفنهم تنقل من موانى مصر منتجات آسيا إلى أسواق أوربا[٢] .

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ١٠٩ .

(٢) جمال سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ص ١٧٥ .

صلاح الدين الأيوبى بطل البحر المتوسط :

حينما سقطت الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ ، وقامت الدولة الأيوبية ، اهتم مؤسسها صلاح الدين الأيوبى بالأسطول اهتماماً واضحاً ، ليقاتل به الصليبيين الذين أخذوا يهددون به الشرق العربى ، وخصص للأسطول ديواناً كبيراً عرف باسم (ديوان الأسطول) وأفرد له ميزانية خاصة ، وعهد بهذا الديوان إلى أخيه العادل .

ترتب على اعتداء الصليبيين على العالم الإسلامى ، أن حدث تغيير شامل فى تنظيم البحرية بالبحر المتوسط ، ولاشك أن مصر كانت أكثر البلاد التى تأثرت بذلك . فالمعروف أن مصر والإمبراطورية البيزنطية اشتهرتا قبل الحروب الصليبية بأنهما أقوى دولتين بحريتين فى البحر المتوسط على أن سيطرة الأسطول المصرى على مياه البحر المتوسط تعرضت أثناء الحروب الصليبية لتحدى القوى الصليبية . ومع أن صلاح الدين اشتهر بما أنزله من هزائم ساحقة بالصليبيين براً ، فإن ما قام به من أعمال بحرية جعلت له مكانة بارزة فى التاريخ البحرى فى شرق البحر المتوسط [١] .

أدرك صلاح الدين أهمية الدفاع البحرى ، وما تسديه المساعدة

---

(١) العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ص ١٦٦ .

البحرية من فائدة للأعمال البحرية فى المناطق الساحلية ، وكانت دواعى الحرب ضد الصليبيين تتطلب قوات بحرية فعالة . وأبدى الصليبيون مخاوفهم من الأسطول العربى على لسان (وليم الصورى) الذى قال : إن نور الدين يستطيع أن يوقف نمو مملكتنا بما يرسله من سفن عديدة من مصر ، يضاف إلى ذلك أنه يستطيع بهذه السفن أن يحول دون قدوم الحجاج إلينا .

حاول الصليبيون الاتفاق مع البيزنطيين ضد صلاح الدين ، واتفقوا على القيام بهجوم مشترك على دمياط . وبعث صلاح الدين جانباً من الأسطول ليرتاد المسالك التى يجتازها المهاجمون ، وتوجهت قوة بحرية بيزنطية من القسطنطينية إلى فلسطين ، والتقت فى أثناء سيرها بأربع سفن من الأسطول المصرى تجاه قبرص ، غير أن السفن المصرية استطاعت أن تفلت من البيزنطيين وتنقل أخبار القوة البحرية إلى مصر ، وبذلك تحققت أول رسالة لأسطول صلاح الدين .

فشلت المفاوضات بين البيزنطيين والصليبيين ، وتأجل رحيل الحملة البرية البحرية لغزو مصر . ولما ظهر الأسطول تجاه دمياط ، اكتشف أن الطريق المؤدى إلى ميناء دمياط ، أغلقته سلسلة ضخمة ، فترتب على ذلك أن أصبح من العسير مهاجمة الميناء من جهة البحر .

حاول النورمان الهجوم على مصر ، مما جعل صلاح الدين

يضاعف اهتمامه بالأسطول ، ففى سنة ١١٧٢ رفع راتب البحارة وبلغت الزيادة نحو ٢٠ ٪ إذ ارتفع من $\frac{٥}{٨}$ دينار إلى $\frac{٣}{٤}$ دينار[١]. مما شجع الناس على الخدمة بالأسطول كما جمع صلاح الدين المواد اللازمة لبناء السفن ولهذا الغرض عقد معاهدات تجارية مع الجمهوريات الإيطالية ، حصل بمقتضاها على حاجته من الحديد والخشب والشمع .

بعث صلاح الدين حملة اتجهت غربا وفتحت القيروان وكان امتداد نفوذ القوة العربية المصرية على ساحل البحر المتوسط مما أدى إلى اتساع منطقة السلام، ولم تعد مصر تخشى ما قد يتأتى من/ خطر مفاجئ من جهة الغرب ، وهيأ لمصر وتجارها سبيلا مباشراً للوصول إلى الغابات التى اشتهر بها شمال أفريقية والحصول على الأخشاب اللازمة للأسطول، ومدّ الأسطول بالملاحين المهرة من أهالى شمال أفريقية .

لم تحل سنة ١١٧٩ (٥٧٥ هـ) حتى صارت البحرية المصرية على أتم استعداد للعمل، فقد تزايد عدد السفن إلى الضعف إذ أصبح ٨٠ سفينة منها ستون شينى أى السفن ذات المائة وأربعين مجدافاً ، وعشرون طرادة . وانقسم الأسطول إلى قسمين ، قسم يتألف من خمسين سفينة تعهدت بحماية السواحل المصرية ، وقسم يتألف من ٣٠ سفينة تقوم بالهجوم على الصليبيين

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٥٦ ، العرينى ص ١٧١ .

وبدأ الأسطول عملياته البحرية فى ربيع سنة ١١٧٩ ، فتوغل المسلمون فى البحر ووصلوا إلى أطراف بيزنطة ، وإلى قبرص وكريت وجنوب آسيا الصغرى ثم عكا ، واستولوا على بعض السفن الصليبية وأسروا كثيراً من الصليبيين ، واستقبل الأهالى الأسطول المصرى استقبالا حافلا . ووصف المؤرخ أبو شامة غزو عكا فقال : « إن ما قام به هذا الأسطول من العمل لم يقم به أسطول إسلامى فى سالف الدهر ، لا فى حالة قوة الإسلام ولا ضعف كفره »[1] .

عقد صلاح الدين هدنة مع ملك بيت المقدس سنة ١١٨٠ وقضى صلاح الدين فترة الهدنة فى تدعيم الأسطول العربى ، فأعاد عمارة القواعد البحرية فى مصر ، وقوّى تحصينات دمياط وبرجيها والسلسلة الممتدة بين البرجين ، وأكمل بناء برج السويس ، وأرسل أسطولا إلى اليمن لتأديب أحد الولاة الثائرين ، وأنشأ ديواناً للأسطول .

نقض الصليبيون الهدنة ، فقرر صلاح الدين أن يقوم الأسطول والجيش معاً بالهجوم على بيروت سنة ١١٨٢ . وكان لفتح بيروت أهمية استراتيجية بحرية ، فأصبح الأسطول العربى قاعدة ضخمة فى شرق البحر المتوسط ، فاتسعت بذلك أعمال السفن المصرية ، التى سوف تعتمد على قاعدة بيروت فيما

---

(١) أبو شامة : الروضتين ج ٢ ص ١٣ ، العرينى ص ١٧٣ .

تحصل عليه من مؤن بدلا من أن تعود إلى مصر للتزود بها .

استولى الأسطول الأيوبى سنة ١١٨٣ على عدد كبير من السفن الصليبية منها سفينة نقل كبيرة (بطشة) بها ثلاثمائة وخمسة وسبعون من الفرسان بسلاحهم وتجار ، ومنها سفينة تحمل كميات كبيرة من الأخشاب كان الأسطول المصرى فى حاجة إليها . ساعد الأسطول صلاح الدين فى عملياته الحربية البرية التى انتهت بتدمير الجيوش الصليبية فى موقعة حطين ، ثم ضيق الحصار البرى براً وبحراً على مدينة صور ثم عكا ، وتألف الأسطول المحاصر لعكا من خمسين سفينة بقيادة حسام الدين لؤلؤ سنة ١١٨٩ .

كان السبب فى بقاء الدولة العربية الإسلامية رابضة فى ميدان التجارة العالمية بعد زوال مجد الروم إبان الحروب الصليبية هو سيطرة المسلمين على الطرق التجارية الرئيسية التى تحمل متاجر الشرق الأقصى إلى شواطئ البحر المتوسط الشرقى . فلم تستطع قوى الصليبيين الناشئة منافسة المسلمين فى تلك الطرق . التى جدت فى بلاد معظمها تابعة لدول إسلامية . كما أن الحكام المسلمين حرصوا على تسهيل حركة الانتقال عبرها بتأسيس الفنادق للتجارة وتأمينهم وإكرامهم ، وضمنوا الأسواق التى تنتهى عندها الطرق التجارية . فلم تخرج الشام على الرغم من مجهودات الصليبيين من أيدى المسلمين نهائياً ،

وإنما وقف الصليبيون فى شريط ساحلى ضيق ، أسسوا به ممالك لهم لا مقومات اقتصادية لها ، على حين تقف خلفها امتداد شاسع من أراضى عربية إسلامية بمتاجرها وقوتها ، إذ كانت شرايين الطرق التجارية تصب فى بلاد عربية إسلامية تجعلها المسيطر الوحيد على متاجر الشرق[١].

الأسطول المملوكى فى البحر المتوسط :

نجح الأيوبيون فى صدّ الهجوم الصليبى ، ولكن المماليك وجّهوا الضربات القاضية إلى الصليبيين ، وكان الأسطول عمادهم فى هذا النجاح الحربى . وبدأت أمجاد المماليك البحرية منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٩ م) الذى أعدّ قوة بحرية يستعين بها فى صدّ أعدائه الذين كانوا يغيرون على بلاده من جهة البحر ، فاهتم بأمر الأسطول ومنع الناس من أن يتصرفوا فى أخشاب السفن ، كما أمر بإنشاء السفن الحربية المعروفة بالشوانى فى ثغرى الإسكندرية ودمياط ، وكان يذهب بنفسه إلى دار الصناعة بالجزيرة ، ويشرف على تجهيز هذه الشوانى ، واستطاع بذلك أن يعدّ أسطولا مكوناً من أربعين قطعة بحرية ، سيرها إلى جزيرة قبرص عام ٦٦٩ هـ (١٢٧٠ م) ولكن هذا الأسطول تحطّم قرب هذه الجزيرة ، فشرع بيبرس

---

(١) العدوى ص ١٥٩ .

فى إنشاء أسطول آخر ، وظل يتردد على دار الصناعة بمصر حتى تم إعداده .

ومن السلاطين المماليك الذين اهتموا بالأسطول ، السلطان الأشرف خليل بن قلاوون ، الذى أنشأ أسطولا مكوناً من ستين مركباً جهزها بالآلات الحربية والرجال ، وقام باستعراض الأسطول فى دار الصناعة بجزيرة الروضة فى احتفال رائع استمر ثلاثة أيام ، وخرج الجميع لحضوره ، وازدحمت الطرق والميادين وأقام الأهالى الزينات . ومن السلاطين المماليك المهتمين بالبحرية أيضاً السلطان الناصر محمد الذى أصبح لمصر فى عهده أسطول كبير[1] .

كان الأسطول المصرى فى العصر المملوكى يتكون من أنواع مختلفة من السفن منها الشوانى ، وهى سفن حربية ذات أبراج وقلاع للدفاع والهجوم ، ومنها الحراريق أو الحراقات وهى سفن حربية كبيرة تقل فى الحجم عن الشوانى ، وتستخدم فى حمل الأسلحة النارية كالنار الإغريقية وبها مواضع خاصة تلقى منها النيران . ومن قطع الأسطول الهامة ، الطرادات أو الطرائد وهى سفن حربية صغيرة الحجم ، سريعة الحركة ، تستخدم فى حمل الخيول ، وتسع عدداً يتراوح بين أربعين وثمانين فرساً ومنها أيضاً الأغربة وهى من السفن الحربية القديمة

---

(١) على إبراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٤١٦ .

التى أخذها المماليك عن القرطاجنيين والرومان ، وقد سميت بهذا الاسم لأن رأسها يشبه رأس الغراب أو الطائر ، وتمثل فى الماء الطير فى الهواء . ومن السفن نوع يسمى البطس وهى التى أخذها المماليك من الصليبيين تستعمل لحمل المجانيق. ومنها أيضاً القراقر وتستعمل فى تموين الأسطول بالزاد والمتاع وأنواع السلاح وكان يطلق على رجال الأسطول (المجاهدين فى سبيل الله) و (الغزاة فى أعداء الله) وكان الجند البحريون موضع تبجيل واحترام سائر الناس ، حتى إنهم كانوا يتبركون بدعائهم .

استعملت هذه السفن فى أوائل عهد السلطان الناصر محمد فى غزو جزيرة رودس ، فى سنة ٧٠٢ هـ جهزت الشوانى بالسلاح والنفط وعين عليها أمير الأسطول سيف الدين كهرداش الرازق المنصورى . وقد سار ذلك الأسطول إلى ميناء طرابلس ، حيث انضمت إليه السفن الحربية الراسية فيه وهاجم الأسطول المصرى جزيرة رودس واستولى عليها وهدم أسوارها .

وفى عام ٨٢٥ هـ (١٤٢٢ م) تولى عرش مصر السلطان برسباى وفى عهده ساءت العلاقات بين المماليك وقبرص بسبب هجوم القراصنة القبارصة على الشواطئ المصرية والسورية فأمر السلطان برسباى ببناء السفن فى دار صناعة بولاق وعين أميراً على الجنود أمير البحر (جرباش القريمى) فى أبريل ١٤٢٥ م ، وسافرت الحملة فى يونية ، وقد انضم إليها بعض السفن من بيروت وطرابلس الشام ، وانتصر على الأسطول

القبرصي في موقعة بيلا Pyla واستولى المصريون على (ليماسول) وتدخلت الدول الأوربية لعقد الصلح ، فعادت القوات المصرية بسفنها وغنائمها .

ولكن برسباي كان يرى إخضاع جزيرة قبرص للنفوذ المصرى . فجهز حملة عربية أخرى وقلد إمارة الأسطول للأمير (إينال الجمق) . وفى أول يونيو أقلعت سفن الأسطول من الإسكندرية إلى قبرص مباشرة وقامت خطة مشتركة بين رجال الجيش والأسطول ، وانتصرت القوات المصريه فى موقعه (شيروكيتا) وأسر ملك قبرص وتسلمه قائد الأسطول والتحم الأسطول المصرى بالأسطول القبرصى تجاه (لارناكا) انتهت المعركة بانتصار المصريين وخسارة الأسطول القبرصى معظم قطعه وأصبحت قبرص جزيرة عربية مصرية تدفع الجزية لمصر إلى نهاية حكم المماليك ١٥١٧ م .

حاول سلاطين المماليك الاستيلاء على جزيرة رودس أثناء القرن الخامس عشر ، فقد كانت تعاون زميلتها قبرص فى أعمال القرصنة ، كما كانت الجزيرتان آخر معقل للصليبيين ولذا رأى السلطان جقمق فتح رودس ، وبعث الحملة البحرية الأولى التى أبحرت من بولاق فى أغسطس ١٤٤٠ م بقيادة الأميرين (تغري برمش) السلاح دار ، ويونس المحمودى أمير خور ونجح المصريون فى القضاء على القراصنة ، فلم يعودوا بعد ذلك للهجوم على السواحل المصرية ، ثم عقدت معاهدة بين الطرفين ، واستمرت العلاقات ودية إلى الفتح العثمانى لمصر سنة ١٥١٧ م .

٥ـ سيطرة عرب الأندلس على غربى البحر المتوسط

دولة بحرية فى الأندلس :

بعد سقوط الدولة الأموية بالشام ، وقيام الدولة العباسية فى العراق ، بدأ سلطان العباسيين يتقلص عن بلاد الأندلس . ونجح بعض أفراد البيت الأموى أن ينجوا من قبضة العباسيين ويقيموا دولة أموية فى بلاد الأندلس ، التى قام بإنشائها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك وحاول العباسيون بكل وسيلة القضاء على هذه الدولة الأموية دون جدوى .

كانت طبيعة بلاد الأندلس تحتم أن تصبح الدولة الأموية دولة بحرية من الطراز الأول ، فهى تطل على البحر المتوسط من الشرق والجنوب ، كما تطل على المحيط الأطلسى من الغرب والجنوب أيضاً ، وتسيطر على الحوض الغربى للبحر المتوسط ، كما أنها هى همزة الوصل بين قارتى أوربا وأفريقية.

السيادة الحربية الأندلسية فى البحر المتوسط :

قام الأمويون فى الأندلس بإنشاء أسطول قوى فى مطلع القرن التاسع الميلادى لصد غارات أهل الشمال Norse والفيكنج Viking . وقام الأسطول الأندلسى سنة ٨٧٩ م بغزو بحرى كبير

فقد هاجم (جليقية) المسيحية ، وأصبح الأسطول الأندلسى فى أوجه فى عصر عبد الرحمن الثالث فى القرن العاشر الميلادى .

فى القرن العاشر الميلادى ، بدأ البيزنطيون فى الشرق ، والأمويون فى الغرب يوسعون سلطانهم البحرى ويخلون بميزان القوى البحرية فى البحر المتوسط . فقد اهتم كل من (رومانوس ليكابينوس) فى القسطنطينية وعبد الرحمن الأموى فى الأندلس بنواحى النشاط البحرى ووصلوا إلى نتائج هامة . وكان نشاط الأسطول الفاطمى سبباً لنشاط القوى البحرية البيزنطية فى غرب البحر المتوسط فقد أغار الأسطول الفاطمى على سردينية وكورسيكا وجنوه وأحرق كثيراً من السفن ، وعجز البيزنطيون عن مقاومتهم .

كان تقدم الأندلس البحرى راجعاً إلى عدم اطمئنان عبد الرحمن الثالث إلى نوايا جيرانه الفاطميين فى شمال أفريقية فعقائدهم الشيعية وطموحهم إلى الاستيلاء على أملاك الأدارسة والرستميين فى الجزائر والمغرب الأقصى — وهى الجهات التى كانت تخضع للنفوذ الأموى عادة — كل ذلك كان تهديداً لأمن الأسرة الأموية فى الأندلس . ولذا شيد عبد الرحمن الثالث أسطولا كامل الإعداد والتنسيق ، اتخذ مراكزه على طول سواحل إسبانيا ، واستولى عام ٩٣١ م على سبتة الواقعة على الشاطئ الأفريقى قبالة جبل طارق وفى عام ٩٤٤ م أثبت هذا الأسطول قوته عندما التقى بأسطول الفيكنج قرب الأندلس

فقضى الأندلسيون تماماً على أسطول أعدائهم .

استقرت أقدام العرب فى إسبانيا وفى صقلية وغيرها من جزائر البحر المتوسط ، وحاولوا الاستقرار على سواحل البحر المتوسط فى إيطاليا وفرنسا ، واستطاعوا أن يؤسسوا إمارة مستقلة على سواحل إقليم بروفانس الأسفل ، وازدادت قوتهم بما كانت تصل إليهم من الإمدادات من بلاد الأندلس وأفريقية وجزيرة صقلية . وتمكنوا بذلك من إقامة المعاقل والحصون فوق المرتفعات المشرفة على خليج غريمو جنوبى إقليم بروفانس وفى غابة (فراكسينت) ومن ثم أطلق على الدولة العربية الفراكسينية . ولم يلبث هؤلاء العرب الذين ألفوا سكنى الجبال والغابات والسير ، فى الأدغال والأحراش . ومما ساعد على ازدياد قوتهم قيام النزاع بين أمراء الإقطاع المجاورين الذين كانوا يطلبون منهم مساعدة بعضهم على بعض .

ولم يكتف هؤلاء العرب بما بلغوه من قوة وما حازوه من ثروة ، بل اعتبروا أنفسهم سادة هذه البلاد وأصحاب النفوذ المطلق فيها ، واستطاعوا فى خلال القرن العاشر الميلادى أن يهددوا تورينو ويخربوا بعض الأديرة وينتشروا فى نواحى مونت فرانت وبيدمنت ويستقروا فى سهول نهر البو وتقدموا فى سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٥ م) إلى حدود ليجوريا ، ودخلوا مدينة جنوة ، ووقعت فى أيديهم ممار جبال الألب الشاهقة ، وخاصة ممر سان برنار ، وفرضوا الضرائب على المسافرين .

لم يقف نشاط العرب عند هذا الحد ، بل اجتازوا جبال الألب الشمالية ودخلوا سويسرا ، وامتد نفوذهم من شواطئ بحيرة كنستانس شمالا إلى جنوه ومرسيليا ونيس جنوباً ، وعملوا على نشر الإسلام فى هذه الجهات ، حتى إننا لا نزال نرى اسم الحى العربى Caton de Sarazins فى أحد أحياء مدينة نيس.

وعلى الرغم من ضعف الدولة الأموية فى الأندلس فى عهد الحكم الثانى والمنصور بن أبى عامر ، فقد احتفظ الأسطول الأندلسى بقوته . وعندما اختبر قراصنة الفيكنج الشماليون قوة دفاع البحرية الأموية عامى ٩٦٦ و ٩٧١ وجدوا أنها لا تزال ذات بأس شديد . ولما أغار الفيكنج لأول مرة على مدينة (شلب) استطاع الأمويون تبديد شملهم دون عناء كبير . بل هاجم الأسطول الأندلسى شواطئ بحر إيجة سنة ٩٧٢ ، كما فعل الأسطول فى عهد المنصور بن أبى عامر نشاطه إلى المحيط الأطلسى .

كما اهتم الأمير مجاهد بن يوسف بالأسطول ، ونجح فى ضم جزر البليار إلى أملاكه عام ١٠١٤ م[١] . ومن هذه الإمارة أطلق مجاهداً أسطوله للغزو فى غرب البحر المتوسط ففى عام ١٠١٥ سار على رأس ١٢٠ سفينة لمهاجمة جزيرة سردينية ومحاولة احتلالها ، ثم عاد الأسطول بعد أن استولى

---

(١) النويرى جـ ١ ص ١١٠ .

على غنائم عظيمة . وسار أيضاً إلى سواحل إيطاليا حيث أغار على مدينة لونى وما حولها من المناطق الساحلية . وتعاون أهل جنوه وأهل بيزا ضده وانتصروا عليه قرب سردينية . وفى العام الثانى أخذوا يعملون على إجلائه عن الجزيرة . على أن أسطول الأمير مجاهد ظل يهدد شواطئ المسيحيين ، فقد أغار عام ١٠١٨ على إقليم برشلونة ، وبقى الأمير مجاهد قوياً مرهوب الجانب إلى أن مات عام ١٠٤٤ .

سيادة الأندلس التجارية فى البحر المتوسط :

حدثتنا المصادر التاريخية عن أساطيل الأندلس ، وتنظيماتها البحرية وخاصة فى القرن العاشر الميلادى . كان أمير البحر فى الدولة الأموية بالأندلس أحد الأربعة الكبار الذين تعتمد عليهم الخلافة . وكان يقال عنه أنه كان قسيم الخليفة الأندلسى فى السلطان ، فهذا يحكم البرّ وذاك البحر . وكانت (المرية) القاعدة البحرية الرئيسية وفيها تجمعت معظم دور الصناعة الهامة . وفى هذه المدينة كانت تجهز السفن التى كونت البحرية النظامية وعددها مائتا سفينة . وكانت هناك قواعد أخرى فى سلبيس والجزيرة وبجاية وطرطوشة ويابسة ، واليقنت . ومن الطبيعى أن عدداً من السفن كان يرابط فى كل من هذه القواعد أيام السلم ، ولكن فى وقت الحرب كانت كلها تتجمع فى مكان واحد ، إلا أن أغلب السفن كان

فى المرية وبجاية ، ولكل سفينة من تلك السفن قبطان أو قائد مسئول عن الأسلحة وعن المحاربين وكبير للبحارة أورئيس يتولى إدارة الشرع والمجاديف . وللحملة البحرية قائد من الأمراء أو من أصحاب المناصب العليا ، ما لم يتولى القيادة كبير أمراء البحر بنفسه .

كانت الدولة البيزنطية تحاول دائماً — كما رأينا — أن تفرض رقابتها التجارية فى البحر المتوسط . ولكن بلاد الأندلس العربية كانت بعيدة عن الخضوع للإشراف التجارى لبيزنطة ، بل كانت الدولة البيزنطية تنشد صداقة الأندلس ؛ ولذا سمح البيزنطيون للأندلس بالاتجار مباشرة مع الشرق دون أى تدخل بيزنطى وثمت حقيقتان تؤيدان هذا الرأى : أولاهما ما جاء من أن اليهود قاموا من مدينة مرسيليا وعن طريق الأندلس بالتجارة مباشرة مع مصر والشرق أوائل القرن التاسع . والحقيقة الثانية أن إبحار المنفيين المسلمين من ثوار قرطبة إلى الإسكندرية رأساً دون معارضة بيزنطة ، يدل على وجود صلات تجارية دقيقة بين هاتين الجهتين . ويبدو من هذا كله أن الأندلس كانت الدولة الوحيدة فى غرب البحر المتوسط ، التى لم تخضع لمراقبة القسطنطينية التجارية فى ذلك البحر .

تمتعت بلاد الأندلس أواخر القرن التاسع الميلادى وطوال القرن العاشر بازدهار زراعى وتجارى وصناعى كبير وهذه حال تختلف اختلافاً كبيراً بالنسبة لما كانت عليه البلاد من

كساد أواخر عهد القوط الغربيين . وأصبحت قرطبة زمن عبد الرحمن الثالث من أكبر مدن العالم العربي الإسلامي واشتهرت بالثقافة والعلم والثروة . وكانت الجهات الأكثر أهمية والأكثر تقدماً من بلاد الأندلس هي الركن الجنوبي الشرقي ، أي الجزء المواجه للبحر المتوسط ، وهذا يبين أهمية تجارة البحر بالنسبة للأندلس .

كان لسيادة الأساطيل العربية على البحر المتوسط في القرن العاشر الميلادي أثر كبير على إنعاش التجارة الدولية على طول طرق التجارة الدولية القديمة بين شرق البحر المتوسط وغربه ، بل جددت حيوية كل من سورية ومصر ، وجلبت الرخاء للأندلس وصقلية وشمال أفريقية ، وأفاضت خيراً كثيراً على تلك البلاد من تجارة البحر .

ظلت بلاد الأندلس تتمتع بالرخاء بعد وفاة عبد الرحمن الثالث ، حتى لقد بلغ دخل الحكم الثاني ضعف دخل أبيه[1] وغدت تجارة الأندلس مع شواطىء أفريقية وشرق البحر المتوسط على جانب كبير من الأهمية . ومن الناحية الاقتصادية لم يتأثر الأندلس كثيراً بسبب الاضطرابات السياسية التي صاحبت سقوط خلافة قرطبة أوائل القرن الحادي عشر الميلادي إذ ظل ملوك الطوائف على جانب كبير من الثراء والحضارة ،

---

(١) ليفي بروفنسال : أسبانيا المسلمة في القرن العاشر ص ٧٢ .

وتأثر المغرب الأقصى بحضارة الأندلس إلى حدٍّ كبير وأصبحت بلاد الأندلس مثلا يحتذى فى شمال أفريقية ، ويشهد بذلك ما كان بقرطبة من خزائن الكتب ، ونشاط الحركة العقلية على يد العلماء الأندلسيين .

وعلى الرغم من الضعف السياسى الذى لحق ببعض الدول العربية الإسلامية ، ورغم انتعاش الأساطيل الرومانية البيزنطية وبعض مدن غرب أوربا ، فإن الجزء الغربى من البحر المتوسط شهد رخاء لم يعهده حتى فى العهد الرومانى . وبصرف النظر عن الغيوم الكثيفة التى تجمعت فى أفق العالم الإسلامى وقتذاك فإن حركة التصنيع المتزايدة فى شمال أفريقية وصقلية والأندلس وقتذاك ، والتوسع فى زراعة الحاصلات الشرقية ، وازدياد حركة التجارة ، وانتشار استخدام الدينار الذهبى ، كل ذلك جعل تلك المرحلة عصراً ذهبياً للإسلام والعروبة هناك ، الأمر الذى جعل نفس ابن خلدون تهفو إليه عند أفول القرن الرابع عشر[١]

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام حـ ٢ ، اويس : القوى البحرية والتجارية .

٦ – الصراع بين العرب وأوربا حول السيادة فى البحر المتوسط

فى القرن الحادى عشر الميلادى :

شهد البحر المتوسط فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى صراعاً عنيفاً بين ثلاث أساطيل ، الأسطول العربى ، وأسطول غرب أوربا الإيطالى ، والأسطول البيزنطى ، وحاول الأوربيون الغربيون السيطرة على جزر كورسيكا وسردينية وصقلية وجنوب إيطاليا والأقاليم الساحلية فى الشام وفلسطين ، منتهزين فرصة المشاكل الداخلية التى سادت الدول العربية والدولة البيزنطية . فقد كان البيزنطيون يعانون من هجوم السلاجقة ابتداء من عام ١٠٧١ م . كما كانت مصر تعانى طوال عشرين عاماً ثورات الجند المرتزقة السودانيين والأتراك والبربر . كما انشقت دولة الزبيرين فى شمال أفريقية على الخلافة الفاطمية بالقاهرة ، كما تعرضت الدولة الفاطمية أيضاً لإغارات قبائل بنى هلال البدوية كما تعرضت دولة الأندلس للضغط المسيحى من الشمال . وحاول غرب أوربا انتزاع السيادة من العرب والبيزنطيين فى البحر المتوسط .

فى عام ١٠٨٧ عظمت قوة بيزا وجنوه البحرية حتى إنهما

قامتا وقتها بأكبر هجوم بحرى لهما ، فخرج أسطول يتألف من ٤٠٠ سفينة هاجم المهدية معقل الزبيريين على ساحل تونس واستولوا عليها ، واضطر الأمير تميم بن باديس أن يدفع مبلغاً كبيراً ثمناً لانسحاب هذه القوات من بلاده ووعد بعدم التعرض لسفن المدن الإيطالية فى المياه الأفريقية .

أخذت جزيرة صقلية تفقد بعض أهميتها باعتبارها حصن عربى فى البحر المتوسط بسبب الخلافات الداخلية بين السكان العرب والمسلمين البربر ، ولكن عرب صقلية ، رغم ذلك ، استطاعوا أن يصدوا غارات بيزنطية ، وأن يحدوا من خطورة النورمان فى جنوب إيطاليا .

نجح (روجر) فى إقامة دولة نورماندية فى جنوب إيطاليا واعترف البابا بها ، وبدأ ينتزع جزيرة صقلية من العرب المسلمين ، وهاجم بست وخمسين سفينة مدينة بالرمو براً وبحراً واستولى عليها . ثم بدأ النورمنديون هجومهم على جزيرة مالطة وفتحوها . وبسقوط مالطة كسب غرب أوربا السيطرة على المضايق الحيوية بين أفريقية وبين صقلية .

إن اعتداءات النورمان على إيطاليا وصقلية وشواطئ الأدرياتى وهجمات جنوه وبيزا فى المياه الغربية للبحر المتوسط وتحرشات المغامرين الإقطاعيين الفرنسيين فى الأندلس ، وحركات البنادقة فى المياه البيزنطية ، بالإضافة إلى التشجيع القوى الذى بذلته البابوية للقيام بهجوم عام على العرب المسلمين من أجل

دوافع دينية ، أدت هذه العوامل كلها إلى نتيجة واحده هي ما نسميه الحرب الصليبية الأولى. ويمكن القول بعبارة أخرى ، أن الحرب الصليبية الأولى تمثل خليطاً مركباً من عدة عناصر تعمل منذ أمد بعيد فى أحداث غرب البحر المتوسط ، تتلخص فى العاطفة الدينية ، وجشع البحارة الإيطاليين والمغامرين الإقطاعيين للحصول على السلب والنهب ، والرغبة فى كسب الامتيازات فى ميدانى النقل والتجارة فى البحر المتوسط(١) .

يرى المؤرخ (أرشيبالدر لويس) أن نجاح الصليبيين لم يكن راجعاً إلى كفاية قوادهم وبسالة جنودهم بقدر رجوعه إلى عاملين آخرين هامين هما أولا قدوم حملة بحرية إيطالية إلى شواطئ سورية حاملة معها العون والمساعدات البحرية اللازمة لإخضاع المدن العربية الساحلية . والثانى ، هو فشل أسطول الفاطميين فى الوصول إلى المياه السورية للعمل ضد الصليبيين . ويعتبر ظهور الأساطيل الإيطالية أمام شواطىء سورية وفلسطين العامل الأكبر أهمية . وكان ظهور الأسطول الجنوى أمام أنطاكية هو الذى حقق للصليبيين هناك ما أحرزوه من نجاح .

ولكن برغم ذلك ، كان الأسطول الفاطمى له شأنه وقتئذ فقد كان فى أواخر القرن الحادى عشر يشتمل على عدد كبير

---

(١) Munro: The Kingdom of the Crusades. p. 30-36

من السفن الحربية ، وكان للأسطول قواعد حصينة فى الإسكندرية ودمياط وعسقلان وثغور أخرى فى الشام . ولكن يبدو أن ضعف الخلفاء الأواخر الفاطميين انعكس على الأسطول مما جعل الفاطميون لا يستخدمون أسطولهم فى صد الصليبيين عن سواحل الشام .

ولكن انتصار غرب أوربا عام ١١٠٠ لم يكن كاملا ونهائيا ، فقد شاهد القرن التالى ثلاث صحوات أو ثلاث انتفاضات أكيدة ، فى ثلاثة من مراكز القوى البحرية والاقتصادية السابقة فى عالم البحر المتوسط فقد استجمع العرب المسلمون فى الغرب قواهم من جديد وأنشأوا دولة أفريقية أندلسية عربية إسلامية ، هى دولة المرابطين ، ثم دولة الموحدين . وفى عهد هاتين الدولتين أعاد الأندلس والمغرب والجزائر بناء الأساطيل ، وتخلص شمال أفريقية وجزر البليار من النفوذ الأوربى ، وحصلت هذه الأقطار جميعاً من جديد على قدر كبير من الرخاء الاقتصادى . وبلغت الحضارة فى هذا الوقت بالذات أرفع مستوياتها فى الأندلس . وشبيه بهذا ما حدث فى مصر وسورية اللتين اتحدتا تحت زعامة صلاح الدين وأصبحتا دولة عظيمة الرخاء قوية السلطان ، وأصبح جيشها قادراً على طرد الصليبيين من الداخل وحصرهم فى سواحل فلسطين وسورية.

الصراع بين الصليبيين والمماليك حول قبرص ورودس :

استولى رتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا على جزيرة قبرص سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) وهو في طريقه إلى الشام لتصبح قاعدة لمد الصليبيين فى الشام بالمساعدات الحربية . وبعد إجلاء الصليبيين من الشام سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م) تجمعت كافة القوى الصليبية الباقية فى الشرق فى جزيرة قبرص واتخذتها مقرًا لها ، كما أصبحت شواطئ قبرص ملجأ للقراصنة ، مما سبب المتاعب للدولة المماليك فى مصر والشام ، فقد تعرضت السفن القبرصية لتجارة المماليك فى البحر المتوسط وهاجمت سواحل مصر والشام[1] . فقد وصلت حملة إلى الإسكندرية سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) بقيادة بطرس الأول ملك قبرص واستولت عليها ، ولكن المماليك أجلوا القبرصيين بعد ثلاثة أيام . ووصف المؤرخ النويرى ما فعله الملك بطرس فى الإسكندرية فقال عنه إنه « دخلها لصًا وخرج منها لصًا »[2].

استمرت العلاقات العدائية بين دولة المماليك والغرب المسيحى بعد هذه المحاولة الفاشلة لغزو الإسكندرية ، حتى عقد الصلح بين القيارصة والمماليك (ديسمبر ١٣٧٠ م) وعندئذ أخذت التجارة تعود إلى ما كانت عليه بين قبرص وجمهوريتى

---

(١) على إبراهيم ص ٣٣٩ . (٢) النويرى حـ ١ ص ٣٦٦ .

البندقية وجنوه من ناحية ، ومصر والشام من ناحية أخرى ، فعادت سفن الفرنجة تفد إلى الإسكندرية بكثرة . . .

وفى عصر السلطان المملوكى برسباى بدأ المصريون حملاتهم لفتح قبرص . فكانت الحملة الأولى سنة ٨٢٨ هـ (١٤٢٤ م) من خمس سفن لاختبار قوة الجزيرة ، فأحرق ميناء ليماسول ومابه من سفن وعادت الحملة إلى مصر محملة بالأقمشة والأثاث والمواد الغذائية والأسرى . وكانت الحملة الثانية سنة ٨٢٩ هـ (١٤٢٥م) من أربعين سفينة عادت ومعها ألف أسير . وكانت الحملة الثالثة سنة ٨٣٠ هـ (١٤٢٦ م) وهدفها فتح الجزيرة ، وانتهى القتال بأسر جيمس لوزينيان ملك قبرص وحمله إلى القاهرة مع كثير من الأسرى ، وأحضر الملك لمقابلة السلطان برسباى فلما وصل إلى القلعة كان بلاط السلطان حافلا بممثلى الدولة العثمانية وأمراء التركمان بآسيا الصغرى ، وممثلى القبائل العربية وشريف مكة وملك تونس ، ودخل ملك قبرص وسط هذا الجمع مكبلا بالأغلال وأجبر على تقبيل الأرض فأغمى عليه . وأقيمت فى القاهرة احتفالات رائعة [(١)].

كذلك أراد المماليك فتح جزيرة رودس ، فقد أرسل السلطان المملوكى جقمق ثلاث حملات لغزوها : الأولى سنة ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ م) وكانت مكونة من خمس عشرة

---

(١) Lane-Poole: Egypt p 337 ، على إبراهيم ص ٣٤٠ .

سفينة ، إلا أن الصليبيين تمكنوا من صدها لأنهم علموا بقيامها بواسطة جواسيسهم فى مصر فاستعدوا لقتالها وانسحب المماليك واستعد جقمق للحملة الثانية فجمع المعدات الحربية وبنى السفن ، وسارت تلك الحملة إلى رودس سنة ٨٤٧ هـ (١٤٤٣) إلا أن اشتداد الزوابع والأعاصير فى الشتاء اضطر الحملة إلى العودة إلى مصر . وكانت حملة جقمق الثالثة سنة ٨٤٨ هـ ، ونجحت فى تخريب الجزيرة ، ولكن كلامن المماليك وفرسان الصليبيين كانوا قد ملوا القتال فعقدوا الصلح ، وظل الفرسان مسيطرين على رودس حتى سنة ٩٢٩ هـ (١٥٢٢) حين استولى عليها الأتراك العثمانيون ، فرحل الفرسان من رودس إلى مالطة فأقاموا بها حتى استولى نابليون عليها فى طريقه إلى مصر

الصراع بين البرتغال ودولة المماليك :

فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر ، وما كادت الحروب الصليبية الغربية تضع أوزارها فى الأندلس بانكماش الإسلام والعروبة فى ذلك الجزء من أوربا ، حتى عزم البرتغاليون على القيام بحرب أخرى فى الشرق ، وستتخذ هذه المرة صبغة اقتصادية ، يحرمون بها العرب والمسلمين من مصدر أساسى من مصادر ثروتهم ، وهو النصيب الكبير الذى كانوا يقومون به فى تجارة الشرق ونقلها ، وذلك بأن يصلوا عن طريق بحرى مباشر إلى الهند والشرق الأقصى ، فيتنكبوا طرق التجارة العربية

البحرية التى تجتاز البلاد العربية ، ويضربوا حصاراً عنيفاً على البحار العربية الداخلية حتى لو اقتضاهم الأمر أن ينزلوا بأطراف البلاد العربية ، على البحر الأحمر والبحر العربى والخليج الفارسى ليملكوا قواعد حصينة لتنفيذ سياسة الحصار .

وتحققت محاولة البرتغاليين ، فتحولت أكثر التجارة الشرقية إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، وقاسى العرب من الحصار العسكرى والاقتصادى الذى فرضه البرتغاليون .

أدى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح أواخر القرن ١٥ م إلى نضوب موارد الدولة المملوكية فى مصر ، فقد بدأ البرتغاليون يحتكرون تجارة الشرق ، وينتزعونها من أيدى العرب ويحطمون قوة العرب وتجارتهم فى البحار الشرقية ويحصرونهم فى البحار الداخلية ، فاستولوا على قواعد حصينة عند مداخل هذه البحار ليشرفوا منها على حصر العرب وإبعادهم عن ميدان التجارة الشرقية ، كجزيرة سقطرة قرب مدخل البحر الأحمر وجزيرة هرمز ومسقط عند مدخل الخليج الفارسى .

ولما كانت مصر من أكثر الدول إفادة من طرق التجارة القديمة ، فقد كانت أشدها تأثراً بالتحول التجارى الجديد ، الذى قضى على السيادة العربية فى البحر المتوسط ، وقضى على الدول التجارية فى حوض هذا البحر مثل مصر والبندقية وجنوه ، وعمل البرتغاليون على تحطيم القوى الإسلامية فى الهند ، وسعوا إلى النفوذ إلى البحر الأحمر للنزول فى الحجاز وانتهاك

حرماته ، بالتحالف مع الحبشة ونهضت مصر المملوكية للعمل ضد البرتغاليين فى البحار الشرقية ، فأنفذوا الأساطيل إلى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وبعثوا بالجيوش لفتح اليمن تأميناً لها من الضغط البرتغالى .

فشلت المساعى الودية التى بذلت لجمع السلطان قنصوة الغورى المملوكى والسلطان سليم العثمانى لمواجهة الخطر البرتغالى ، واشتعلت الحرب بين الدولتين ، فكانت موقعة (مرج دابق) شمالى حلب سنة ١٥١٦ م وهزيمة القوات المملوكية ، وفتح العثمانيين للشام ومصر . ونهض العثمانيون لمدافعة البرتغاليين عن البحار الشرقية ، واقتضى هذا أن يبسط العثمانيون سلطانهم فى البحر الأحمر بجانبه الأسيوى بضم الحجاز واليمن ، وجانبه الأفريقى بضم الإمارات العربية فى سواكن ومصوع وهرر تحت سلطانها ومحاولة إخضاع الحبشة ومن البحر الأحمر بدأت الأساطيل العثمانية تخرج لمقاتلة البرتغاليين فى المحيط الهندى والخليج الفارسى لفك الحصار الذى ضربه البرتغاليون على التجار العرب والمسلمين فى تلك الأصقاع [١] .

الصراع بين إسبانيا والمغرب العربى :

وإذا كان التوسع العثمانى فى الشرق العربى قد ارتبط — إلى حد كبير — بالحرب الدينية الاقتصادية التى شنها البرتغاليون

---

(١) العالم العربى فى العصر الحديث ص ١٧ .

على العرب والمسلمين فى البحار الشرقية وأطراف الجزيرة العربية ، فقد ارتبط التوسع العثمانى فى الجناح الغربى من العالم العربى — وهو المغرب العربى — بالحروب التى شنها الإسبانيون على العرب والمسلمين فى شمال أفريقية .

وقد عاصرت المحنة الكبرى التى أصابت العرب فى المشرق فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى بسقوط الخلافة العباسية على أيدى المغول (١٢٥٨) محنة أخرى أصابت العرب فى المغرب بسقوط دولة الموحدين (١٢٦١) التى كانت تنتظم بلاد المغرب كلها من حدود برقة إلى المحيط الأطلسى ، وكانت تجمع عرب المغرب جميعاً فى وحدة سياسية واقتصادية واحدة .

وعلى أنقاض الموحدين قامت دول صغيرة تقاسمت فيما بينها ملك المغرب فى تونس والجزائر ومراكش ، وبدأ ذلك الانقسام والتنازع الذى طال بينها حتى أودى بها جميعاً ، فقد طمعت فيها الدول المسيحية المواجهة لهم على الجانب الآخر من البحر المتوسط كجنوه والبندقية ومالطة والإمارات المسيحية فى الأندلس التى كانت تزحف على ما بقى من المسلمين من ملك فى شبه الجزيرة . وبسقوط غرناطة انتهى ملك العرب والمسلمين فى الأندلس وبدأ الإسبان يوجهون حربهم نحو شمال أفريقية . وعجزت الإمارات العربية المغربية عن الصمود للإسبان ، فلجأوا إلى أكبر قوة إسلامية ، وهى قوة السلاطين العثمانيين وكانوا قد فتحوا أكثر بلاد الشرق العربى وبسطوا

سلطانهم فى الجزء الشرقى من حوض البحر المتوسط وكانت لهم قوة بحرية قوية ، فتطلعوا إلى ضم الجزء الغربى من ذلك الحوض ، وباسم الإسلام ونصرة الإسلام تقدموا لمساعدة العرب فى شمال أفريقية فى كفاحهم ضد الإسبان ، وتقاضوا ثمن المساعدة ، وكان دخول بلاد المغرب العربى فى حوزة السلطنة العثمانية .

والحق أن اتجاه الإسبانيين إلى الاستيلاء على ثغور الساحل الأفريقى يرجع إلى القرن الثالث عشر ، ثم اشتدت أطماعهم فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر حين تم لهم استئصال الإمارات الإسلامية بالأندلس وأصبحت لهم دولة واحدة كانت إذ ذاك تعد أقوى دول أوربا وأوسعها أملاكاً فى أوربا وفيما وراء البحار . واستولى الإسبانيون على أكثر ثغور طرابلس وتونس والجزائر ، بينما استولى البرتغاليون على موانى كثيرة من المغرب الأقصى (مراكش) .

أصبحت القرصنة فى البحر المتوسط مهنة يفخر بها المغاربة لأنها وسيلة للانتقام من أعدائهم الأوربيين . وظهر من بين القراصنة أخوان شقيقان هما (عروج) وأخوه (خير الدين) المعروف باسم (باربروس) أى ذو اللحية الحمراء ، وذاع صيتهما فى البحر المتوسط ، وكان اسماهما يرعب أهل الملاحة الأوربية من مضيق جبل طارق إلى بوغاز الدردنيل . ولما ضاق أهل الجزائر بضغط الإسبان ، دعوا (عروج) وأخاه (خير الدين)

إلى إنقاذهم وتحرير بلادهم . وكان الأخوان معروفين لأهل المغرب العربى ، فقد كانا يذهبان بما يستوليان عليه أثناء عمليات القرصنة على سواحل إيطاليا وإسبانيا إلى موانى شمال أفريقية .

ولبى الأخوان نداء أهل الجزائر . وبعد موت عروج انفرد خير الدين بالبطولة فقام بمهاجمة فلول الإسبان التى تحصنت ببعض القلاع فى الجزائر فاستولى عليه ثم أخذ يمد ملكه شرقاً وغرباً فى شمالى أفريقية[1] .

العرب يدافعون عن السيادة البحرية فى العصر العثمانى :

لم يكد القرن السادس عشر ينتهى حتى كانت هذه الرقعة المتوسطة من الأرض التى يسكنها العرب على جانب البحر المتوسط والبحر الأحمر قد فقدت أهميتها فى دنيا التجارة والسياسة، وتحول النشاط العالمى إلى المحيطات الواسعة والعوالم الجديدة .

وضع العثمانيون سياسة فى حكم العالم العربى تقضى بعزل البلاد العربية عن التيارات الفكرية والسياسية والاقتصادية التى ظهرت فى أوربا فى ذلك الحين ، فقد بدأ عصر النهضة الأوربية ، وتوهم السلاطين العثمانيون أن هذه العزلة كفيلة بأن تجنب الولايات التابعة لها أطماع الدول الأوربية .

ولكن فى الحقيقة أن أوربا نفسها كانت منذ تحولت التجارة

---

(١) البطريق : الأمة العربية ص ١٤ .

بين الشرق والغرب إلى طريق رأس الرجاء الصالح قد انصرفت عن الاهتمام بالشرق الأوسط حيث تجرى طرق التجارة البرية بين الشرق والغرب ، وبعد أن وقع هذا الشرق فى قبضة الأتراك العثمانيين ، وراح الأوربيون يروّجون للطريق الجديد ، كما فتح لهم الكشف عن العالم الجديد آفاقاً واسعة للتجارة والاستعمار.

وتحت الحكم العثمانى رضى العرب بالعزلة التى فرضت عليهم ، وقبلوا أن يتركوا مهمة حراستهم والدفاع عنهم للأتراك ، ولكن العرب ظلوا — مع هذا كله — مستمسكين بمقومات ثقافتهم العربية الإسلامية يعتصمون بها من بطش الترك ، فكانت أهم عامل فى المحافظة على القومية العربية .

كان للجزائر قوة مرهوبة فى البحر المتوسط ، وكان على الدول الغربية الأوربية التى تريد لسفنها فى ذلك البحر أماناً أن ترتبط مع داى الجزائر بمعاهدة صداقة وأن ترسل قنصلا لها يقيم فى مدينة الجزائر وتدفع للداى قدراً من المال معلوماً فى كل عام ، فى مقابل تأمين سفنها التجارية فى البحر المتوسط وهكذا أصبحت الجزائر دولة كبرى تخطب الدول ودّها وأصبح الداى أميراً مستقلا يمارس علاقاته الخارجية مع الدول الأجنبية .

قامت فى المغرب الأقصى ، أى مراكش ، فى أوائل القرن السادس عشر دولة عربية قوية استطاعت أن تصمد لاعتداء البرتغاليين والإسبان ومطامع الأتراك والعثمانيين ، وهى دولة الأشراف السعديين وقد استطاعوا أن يثيروا الحماسة الدينية

والقومية عند الشعب المراكشى ضدّ البرتغاليين ، وفى معركة وادى المخازن قرب القصر (١٥٧٨) قضى السلطان منصور السعدى قضاء مبرماً على الجيش البرتغالى ولقى ملك البرتغال حتفه فى هذه المعركة ، وفقدت البرتغال بعدها أكثر القواعد التى كانت تحتلها على ساحل مراكش .

وهكذا استطاعت مراكش أن تعزز مكانتها كدولة مستقلة ، وراحت الدول الكبرى تخطب ودها ، واضطرت إسبانيا أن تنزل عن أكثر الموانى المراكشية التى كانت تحتلها . ولم يجد العثمانيون سبيلا إلى تنفيذ مطامعهم فى مراكش ، فقنعوا معها بحسن الجوار ، ووجد سلطان مراكش منصور السعدى فسحة من الوقت والقوة ليفتح بلاد السودان والصحراء (١٥٩١) ويشق لقوافل التجارة طرقها من داخل أفريقية إلى ساحل البحر المتوسط .

وخلفت دولة السعديين فى مراكش ، دولة أخرى أسسها العلويون واستطاع السلطان المولى إسماعيل أن ينتزع طنجة من الإنجليز ، كما انتزع من الإسبان أكثر ما بقى بأيديهم من ثغور مراكش وأصبحت لمراكش فى عهده شخصية دولية مرموقة ودخل فى علاقات مع الدول الكبرى ، وتبادل الهدايا والرسل مع بلاط لويس الرابع عشر ملك فرنسا .

حتى إذا كان القرن التاسع عشر ، بدأت تعود لهذه الرقعة المتوسطة من الأرض التى يسكنها العرب أهميتها السابقة ، فعادت الأساطيل الكبيرة ، أساطيل الحرب وأساطيل التجارة ،

تشق طريقها فى البحار العربية ، وبدأت وفود من الغرب ترد إلى ديار العرب ، من أهل الحرب ، ورجال الاقتصاد ، وأصحاب المطامع والمكتشفين والمغامرين ، وبدأ أمراء وحكام فى البلاد العربية يعقدون الصلات ويدخلون فى علاقات متنوعة مع الحكومات الأوربية وبدأ وفود من العرب ، من مصر وسورية ولبنان وغيرها تذهب إلى ديار الغرب لتتزود منها بأسرار قوتها[١]

السيادة المصرية العربية فى شرق البحر المتوسط فى القرن ١٩ :

اهتمت مصر بإنشاء أسطول لها بعد استنجاد الدولة العثمانية بالجيش المصرى للقضاء على الحركة الوهابية فى الجزيرة العربية . فبدأ ظهور الأسطول المصرى الحديث أوائل سنة ١٨١٠ ، وأنشئت العمارة البحرية الأولى فى ترسانة بولاق ، وهى الترسانة التى اعتمد عليها محمد على فى صنع السفن الكبيرة إلى أن أسس ترسانة الإسكندرية . وأنشئت فى ترسانة بولاق السفن التى استخدمتها مصر فى الحملة الوهابية ، وأنشئت بها أيضاً السفن التجارية التى استخدمتها الحكومة المصرية لنقل المتاجر والمهمات على النيل وعلى شواطئ البحر المتوسط .

كانت قوة مصر الحربية غير كافية للدفاع عن استقلال مصر وبسط نفوذها فى الخارج إلا إذا عاونها على ظهر البحار أسطول حربى قوى ، لذلك جاء إنشاء الأسطول المصرى

---

(١) تاريخ العالم العربى ، العصر الحديث ص ٤٨ .

بعد تشكيل الجيش المصرى النظامى بزمن يسير .

كان بالإسكندرية ترسانة قديمة تبنى فيها بعض السفن على الطراز القديم وقد عهد برئاسة الهندسة فيها إلى رجل يدعى شاكر أفندى الإسكندرانى يعاونه فى ذلك مهندس بارع من أهالى الإسكندرية يدعى (الحاج عمر) ، وهو من مشاهير المعلمين فى فن بناء السفن ، فجعلته الحكومة المصرية رئيساً للإنشاء وعمارة السفن ، وجعلت الحكومة على مناظرة بناء السفن موظفاً يدعى الحاج أحمد أغا . وتولى إدارة الأساطيل المصرية محرم بك محافظ مدينة الإسكندرية ، واشترك هذا الأسطول فى قتال اليونانيين فى جنوب المورة .

لما استفحل أمر السفن اليونانية فى البحر المتوسط ، أرسل السلطان محمود إلى محمد على يعهد إليه أن يجرد أسطوله لتطهير البحر من قرصنة هذه السفن ، وكان ذلك فى سنة ١٨٢١ ، أى قبل الحملة المصرية على المورة .

ذكر (مانجان) [١] أن محمد على أعدّ الأسطول فى الإسكندرية حيث أقلع منها فى ١٠ يوليو ١٨٢١ بقيادة الأميرال إسماعيل جبل طارق (أو إسماعيل الجبل الأخضر كما تسميه بعض المصادر الفرنسية) وكان مؤلفاً من ١٦ سفينة كاملة السلاح والعتاد ، وبها ٨٠٠ مقاتل ، فاتجه الأسطول إلى مياه

---

(١) انظر (عصر محمد على) لعبد الرحمن الرافعى .

رودس لمطاردة السفن اليونانية ، والتقى بالأسطول التركى فى الدردنيل ثم عاد إلى الإسكندرية فى مارس سنة ١٨٢٢ ليتأهب لنقل الحملة إلى جزيرة كريت .

عجز السلطان العثمانى عن إخضاع ثورة المورة فاستنجد بالجيش والأسطول المصرى . وتألف الأسطول المصرى فى حرب الموره من ٥١ سفينة حربية و ١٤٦ سفينة نقل ، وشبه المؤرخ (دريو) [1] هذا الأسطول بالأرمادا وهو الأسطول الإسبانى الضخم الذى أعده الملك فيليب الثانى ملك إسبانيا لغزو إنجلترا فى القرن ١٦ ، ويذكر (دريو) أيضاً أن الشرق لم ير حملة تدانيها فى ضخامتها منذ حملة بونابرت ، فكأن الشرق أراد أن يغزو الغرب جواباً على حملة أوربا عليه ، وهكذا تنقلب الأطوار فى سير التاريخ .

أقلعت العمارة المصرية من ثغر الإسكندرية فى يوليو ١٨٢٤ ، ولم تقصد إلى المورة رأساً ، بل اتجهت إلى مياه رودس ، ومنها إلى خليج (ماكرى) على شاطئ الأناضول لتلتقى بالأسطول التركى . وكان الأسطول المصرى مثالا لحسن النظام ، بينما كان الأسطول التركى مثالا للفوضى ولذا ألحق اليونانيون به كثيراً من الخسائر .

هاجمت السفن اليونانية الأسطولين المصرى والتركى بالقرب

---

(١) تاريخ اليونان السياسي ج ١ ص ٢٥٧ .

من بودروم ، فلاذ الأسطول التركى بالفرار من الميدان، بينما صمد الأسطول المصرى ، ولم يخسر سوى سفينتين .

انتصر الجيش المصرى على الثوار اليونانيين فى عدة معارك برية ، ثم حاصر ميناء نافارين براً و بحراً واستولوا عليها ، مما جعل اليأس يدب فى قلوب اليونانيين .

قدم أسطول مصرى جديد لتعزيز الأسطول المصرى الأول فى أغسطس ١٩٢٧ بقيادة الأميرال محرم بك ، وتألف من ١٨ سفينة حربية مصرية ، وأربع سفن تونسية ، وست حراقات وأربعين مركباً لنقل الجنود وعددهم ٤٦٠٠ مقاتل . ورسى الأسطول فى ميناء نافارين فى ٩ سبتمبر ١٨٢٧ .

تجمع أسطول الحلفاء لقتال الأسطول المصرى . فقد غضبت الدول الأوربية من التدخل المصرى فى القارة الأوربية وسيادة الأسطول المصرى العربى فى شرق البحر المتوسط ، وأبدت إنجلترا وفرنسا وروسيا استياءها ، وعقد مؤتمر لندن (يوليو١٨٢٦) وتقرر فيه إرسال أسطول دولى تكون القيادة العامة فيه للقائد الإنجليزى (كودرنجتون) . وفوجىء الأسطول المصرى بهجوم أساطيل إنجلترا وفرنسا وروسيا وإطلاق مدافعها على السفن المصرية بدون سابق إنذار ، ونشبت معركة (نافارين) وصمد الأسطول المصرى الناهض ضد أساطيل الدول الكبرى مجتمعة مدة ثلاث ساعات مستمرة بشجاعة فائقة وانتهت المعركة بتحطيم معظم السفن المصرية .

بدأ المصريون يعيدون إنشاء أسطول جديد بأيد مصرية ، لكيلا تكون مصر عالة على البلاد الأوربية فى إنشاء تلك السفن فأقام المصريون دار صناعة (ترسانة) كبرى بالإسكندرية لبناء السفن الحربية . وساهم فى إنشاء الأسطول المصرى الجديد ، مهندس مصري هو (الحاج عمر) من أهالى الإسكندرية ، تصفه جميع المصادر التاريخية بأنه كان مهندساً بارعاً فى فن بناء السفن ووصفته جريده الوقائع المصرية[1] بقولها : « الحاج عمر يوزباشى من أهالى الإسكندرية رئيس المعماريين فى ترسانة الإسكندرية ، لم يكن له نصيب من علم الهندسة ، ومع ذلك زاول أعمال سفن التجارة مدة ، وصار كأنه مهندس رياضى بكثرة المزاولة فى الأعمال ، وبسبب قوة ذكائه وفطانته » .

فى سنة ١٨٢٧ تقاعد محرم بك وخلفه فى قيادة الأسطول المصرى أمير البحر عثمان نور الدين باشا الذى أبحر بالأسطول لحماية نقل الجيوش المصرية ومعاونتها فى الحملة على سوريا بضرب سواحلها وحصارها ومطاردة الأسطول العثمانى إذا ما دنا منها.

وبينما كانت السفن المصرية تجوس فى المياه العثمانية إذ أبصرت بالسفن التركية ، فلم تتوان عن مطاردتها وحصرها فى ميناء (مرمريس) مضيقة عليها الخناق حتى دفعتها إلى مضيق الدردنيل ، وكان فى استطاعة الأسطول المصرى أن

(١) عدد ١١٢ (فبراير ١٨٣٠) .

يقتحمه فيلحق بها ويفنيها لولا تدخل الدول الأوربية .

كان الجيش المصرى يلقى نجاحاً وانتصارات باهرة فى الشام على الجيش العثمانى . بينما كان قائد الأسطول العثمانى (أمير البحر أحمد فوزى باشا) فى طريقه إلى مصر للانضمام إلى الأسطول المصرى ، فوصل إلى ميناء الإسكندرية وسلم سفنه إلى المصريين فى ١٣ يوليو ١٨٣٩ ، واستقبله الضباط المصريون استقبالا حافلا ، وكان الأسطول العثمانى مؤلفاً من ٢٢ قطعة ، وكان الأسطول المصرى مؤلفاً من ٢٧ قطعة ، فكونا أسطولا ضخماً من ٤٩ سفينة حربية عليها ٣٠,٠٠٠ بحاراً وجندى و ٣٠٠ مدفع .

امتاز المصريون على سائر الشعوب فى فن بناء السفن بإدخال السطح المتواصل فى السفن المصرية ، فأصبحت فسيحة مع زيادتها فى الحمولة مما جعلها وافية بالغرض الذى أنشئت من أجله ، فقد وجد المصريون أنه من السهل الالتحام مع سفينة العدو من المقدم أو المؤخر بدلا من الالتحام معها جنباً إلى جنب ، السبب الذى من أجله ضحت الدول الأجنبية بالميزة التى ابتدعها المصريون ، فجعلوا السطح العلوى أضيق من السطح الأوسط لترك مكان كاف عند الالتحام بالجنب[١] .

وكان الأسطول المصرى فى ذلك الوقت دائب الحركة

---

(١) المعارف البحرية ص ٦٣ .

مستمراً فى القيام بمناوراته فى كل بقعة من المياه الصعبة فى شرق البحر المتوسط مؤكداً تفوقه على الأسطول التركى من جميع الوجوه . وقد بنيت منارة الإسكندرية حوالى ذلك الوقت لإرشاد الملاحة وتوطيد الثقة والسلامة لحركة السفن المستمرة فى الازدياد فى ميناء الإسكندرية .

وفى سنة ١٨٤٠ كانت مصر تملك أسطولا ضخماً أثار إعجاب العالم وبلغ عدد سفنه الحربية ٧٠ سفينة بها حوالى ٣٠٠٠ مدفع ، و ١٠ سفن سريعة للمخابرات ، و ١٤٥ سفينة نقل . وبلغ عدد رجال الأسطول أكثر من ٢٠ ألفاً مضافاً إليهم ٢٥٠ طالباً بحريًّا فى الكلية البحرية .

الأساطيل الأجنبية والثورة العرابية :

قام أحمد عرابى ثائراً على النفوذ الأجنبى والفساد الداخلى ، وبدأ يعيد تنظيم الجيش وتعمير الطوابى ، وربما اتجهت العناية بعد ذلك إلى إنشاء أسطول جديد يكون خير عون لحماية مصر من الأطماع الأجنبية ، فإن الأسطول ركن أساسى بدونه لا تكتمل وسائل الدفاع .

لم تكن هذه اليقظة التى أبدتها البلاد مما يرضى الدول الأوربية التى ما زالت تتطلع إلى مصر ، فراحت هذه الدول تلتمس لنفسها سبباً للتدخل وأخيراً تحت ستار حماية حقوق الأقليات الأجنبية اكتظت ميناء الإسكندرية بأساطيل بريطانيا وفرنسا

وإيطاليا ، ولم يكن غرضها الحقيق إلا منع التضحيات والتجهيزات العسكرية لتقليل المقاومة عند سنوح الفرصة .

هذا التحدى بل هذا التعدى لم تكن لتجرؤ دولة أن تواجه به مصر ، ولم تكن مصر لتقف أمامه مكتوفة الأيدى لو كان قد بقى لها أسطولها القوى الذى بفضله كان الجميع يوماً يسعون إلى خطب ودها . والآن يريدون فرض إرادتهم ، فتأبى مصر وتفشل المفاوضات وينفرد الأسطول البريطانى بقيادة الأميرال سيمور بضرب الإسكندرية عند فجر يوم ١١ يوليو ١٨٨٢[١] .

تحدث أحمد عرابى فى مذكراته[٢] عن هذا الحادث فقال : (وجاء تلغراف من الصدر الأعظم إلى الخديو توفيق باشا يذكر به أن « باشكاتب السفارة الإنجليزية حضر إلى الباب العالى وأخبره أن الجهادية المصرية تهدد الأساطيل الإنجليزية فى ثغر الإسكندرية بتحصين القلاع وإقامة الحصون وفى ذلك تهديد للدونمة الإنجليزية ، فإن لم تكف الجهادية عن تقوية الاستحكامات وتمسك عن تعزيز حصونها من غير إبطاء اضطر الأميرال سيمور إلى إطلاق مدافعه على الإسكندرية فيدكها دكًّا ويهدمها عن آخرها » ... وفى صباح يوم ١٠ يوليو سنة ١٨٨٢ انعقد مجلس فوق العادة من النظار . . ولما تلى كتاب الأميرال سيمور المرسل إلى طلبة باشا قومندان المدينة تقرر

---

(١) المعارف البحرية ٧٦ .   (٢) طبعة دار الهلال ١٦٨ .

المجلس المذكور بأنه لا يمكن إجابة طلب الأميرال سيمور ، لما فى ذلك من الخزى والعار الذى يلحق بالمصريين إلى الأبد ، حيث إن الاستحكامات والطوابى المذكورة ما أنشئت إلا لحفظ الثغور ، والعساكر ما وجدت إلا للدفاع عن الوطن العزيز والذود عن حياضه ، فلا يجوز لهم أن يخربوا معاقلهم بأيديهم لمجرد طلب العدو الطامع فى بلادهم ، بل الواجب عليهم أن يدافعوا عن بلادهم ويقوموا بما تحتمه عليهم واجباتهم الجريئة إلى آخر رمق من حياتهم دفاعاً عن شرف الوطن . . . » .

لم تكن طوابى الإسكندرية كافية لمقاومة الأساطيل الأوربية الحديثة ، فالطوابى ثابتة وقوس نيرانها محدود ، وكانت سبل وقاية أفراد حامياتها غير مكفولة . وقد ركز الأسطول البريطانى نيرانه على الطوابى كل منها على حدة إلى أن سقطت الواحدة تلو الأخرى بخسائر جسيمة فى الأرواح والمعدات مع أن خسائر الأسطول لم تكن إلا محدودة .

وهكذا لو أن هناك أسطولا مصرياً يذود عن البلاد ويدفع عنها العدوان لما تعرضت الإسكندرية لهذا العدوان الغادر . ولذا اهتمت مصر فى نهضتها الأخيرة أن تبنى أسطولا عربياً كبيراً يذود عن الشواطئ المصرية والعربية ، وأثبت هذا الأسطول العظيم وجوده وقوته خلال العدوان الثلاثى الغادر فى أكتوبر ١٩٥٦ ، مما يبشر بعودة السيادة العربية للبحر المتوسط ، فيصبح هذا البحر بحيرة عربية من جديد .

دار المعارف

تقدم إلى قراء العربية هذه النخبة الفريدة من الكتب السياسية :

قرشاً

* تطور الفكر السياسى — لجورج ساباين
  ترجمة الأستاذ حسن جلال العروسى — ٣٠

* نحو عالم واحد — لفرانك موراينس
  ترجمة الأستاذ محمد سامى عاشور — ٤٠

* آسيا والسيطرة الغربية — لبانيكار
  ترجمة الأستاذ عبد العزيز جاويد — ٥٣,٥

وفى مكتبة العلوم السياسية :

* تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية — للأستاذ محمد رفعت (مدير التربية والتعليم سابقاً)

* المحرر العسكرى — للدكتور محمود محمد الجوهرى

* العلاقات العامة فى المؤتمرات الدولية — للدكتور محمود محمد الجوهرى



يوليو ١٩٦٣ — الثمن ٣٠ مليماً